

شرح الأصول الثلاثة

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بها

عبد السلام بن عبد الله السليمان

دار الإمام أحمد

شرح الأصول الثلاثة
لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

دار الإمام أحمد

سلسلة شرح الرسائل

شرح
الأصول الثلاثة

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

لمعالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بنشرها والتعليق عليها

عبد السلام بن عبد الله السليمان

شرح

الأصول الثلاثة

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح

معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بنشرها والتعليق عليها

عبد السلام بن عبد الله السليمان

دار الإمام أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم



شــرح
الأصول الثلاثة

الطبعة الثانية لـ :

دار الإمام أحمد
للنشر والتوزيع والصوتيات

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١٩٨٢٩ / ٢٠٠٦م



٦ شارع عزيز فانوس منشية التحرير جسر السويس - القاهرة

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال: ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨

١١ (أ) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥١٠٢٣٩٧ جوال: ٠٠٢/٠١٠٥٢٦٤٠٢٠

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com
WWW. DarAlemamAhmad.Com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الشرح

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبيِّنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين:

وبعد: فبين أيدينا هذه الرسالة -رسالة ثلاثة الأصول-وهي رسالة جليلة مختصرة، مؤيَّدة بالأدلَّة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهذه الرسالة في أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو العقيدة، وكان العلماء يهتَمُّون بهذه المختصرات، يؤلفونها، ويتعبون علىٰ اختصارها وتهذيبها، ثم يُحفِّظونها لطَلَبَتِهم؛ لتبقىٰ أصولًا عندهم، وذخيرةً يستفيدون منها، ويُفيدون منها.

والبداءةَ بهذه المختصرات هي الأساس لطلبة العلم، فطالب العلم يبدأ بالتعلم شيئًا فشيئًا يأخذ من مبادئ العلم وأصوله، ويتدرج فيه.

فهذه المختصرات طريق المطوَّلات؛ فلا يُمكنُ أن تُفهَمَ المطوَّلات إلا بعد فهم المختصرات، والتدرج منها شيئًا فشيئًا؛ ولهذا قالوا في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

إن الربَّانيين هم الذين يبدءون بصغار مسائل العلم قَبْل كباره، يُربُّون أنفُسَهم وطلابهم ابتداءً من المسائل الصغيرة إلىٰ المسائل الكبيرة، وهذا شيء طبيعي؛ لأن كل الأشياء تبدأ من أصولها وأساساتها ثم تكبر وتعظم بعد ذلك.

فأما الذي يهجُمُ علىٰ العلم هجومًا من أعلاه، فهذا يتعب، ولا يحصُل علىٰ شيء، بينما الذي يبدأ من الأصول ويتدرَّج هذا هو الذي -بإذن الله- يسير مع الطريق الصحيح والاتجاه السَّليم.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ [البقرة:١٨٩].

هؤلاء سألوا عن الأهلَّة، لماذا يبدأ الهلالُ صغيرًا ثم يكبُرُ ثم يكبُرُ حتىٰ يتكاملَ ثم يصغرُ حتىٰ يعودَ هلالًا؟ فعَتَبَ الله عليهم، ووجَّهَهم إلىٰ السؤال عما ينفعُهم، وأن يأتوا بيوتَ العلم من أبوابها.

أما السؤالُ عن الهلال وأحواله وصغره وكبره، فهذا لا فائدةَ لهم فيه؛ بل الفائدة هي أن يسألوا عما يحتاجون إليه وهو معرفة فوائد الأهلَّة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ بيَّن لهم فوائدها، وهي أن الله جعلَها مواقيتَ للناس يعرفون بها العبادات والمعاملات والآجال، وغير ذلك.

فأرشدهم إلىٰ فوائد الأهلَّة، ولم يُجِبْهُم عن سؤالهم عن حقيقة الأهلة؛ لأنه ليس لهم في ذلك فائدة وليوجههم إلىٰ ما ينبغي أن يسألوا عنه، وهو أبواب العلم لا ظهور العلم والمسائل الفُضولية التي لا يحتاجون إليها، وإن احتاجوا إليها فهي حاجة قليلة.

مقدمة المؤلف

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بسم الله الرحمن الرحيم [١].

---

[١] ابتدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الرسالة بالبسملة اقتداءً بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ، فإن أول ما يقع عليه بصرك في المصحف، وقبل كل سورة منه: «بسم الله الرحمن الرحيم».

فالبداءة بها في الرسائل، وفي الكتب، وفي المؤلفات، اقتداءً بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ، وكذلك النبي ﷺ كان يكتبها في أول رسائله حينما يكتب إلىٰ الأمراء والرؤساء، وإلىٰ من في أقطار الأرض يدعوهم إلىٰ الإسلام، يبدأ كتابته بـ:«بسم الله الرحمن الرحيم».

وكان ﷺ يفتتح أحاديثه وكلامه بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» مما يدلُّ علىٰ أن البداءة بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» سُنة الرسول ﷺ، كما كان سُليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما كتب إلىٰ بلقيس ملكة سبأ بدأ كتابه بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم»: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل:٢٩-٣١]. ينبغي البدء بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» في كلِّ أمرٍ له أهميَّة، وكلِّ مؤلَّف له أهمية، وله قيمة، وكل رسالة.

وعلىٰ هذا فالذين لا يبدءون مؤلفاتهم ورسائلهم بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» هؤلاء تركوا السنة النبوية، والاقتداء بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ ، وربما بسبب ذلك أن كتبهم

هذه ورسائلهم ليس فيها بركة، وليس فيها فائدة؛ لأنها إذا خلت من «بسم الله الرحمن الرحيم»، فإنها منزوعة الفائدة.

لماذا تركوا «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ إنما تركوها؛ لأنها سُنَّة وهم يَنْفِرون من السنة، أو يقلدون من يَنْفِر من السنة، فينبغي التنبه لمثل هذا.

فمعنى «بسم الله الرحمن الرحيم»: الاستعانة باسم الله.

فقوله: باسم الله، جارٌّ ومجرور، متعلِّق بمحذوف تقديره: أستعين باسم الله الرحمن الرحيم، أو: أبتدئ بـ: بسم الله الرحمن الرحيم تبرُّكًا بها، واستعانةً بالله عَزَّ وَجَلَّ.

فهي مَطْلَعٌ عظيمٌ للكلام وللكتب والرسائل، فالإنسان يستعين بالله في بدايتها، ويتبرَّك باسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الرسالة الأولى : المسائل الأربع التي تضمنتها سورة العصر - (العلم)

اعلَمْ -رحمَكَ اللهُ- [٢].

---

[٢] قوله: «اعلم» كلمة تشير إلىٰ الاهتمام بالموضوع، فإذا قال: اعلم؛ فمعناه: أن الأمر الذي سيلقيه عليك أمرٌ مهمٌّ، فهذه الكلمة تدلُّ علىٰ أهمية الموضوع التي يبدأ بها فيه.

ومعنىٰ اعلم: فعل أمر من العِلْم، أي: تعلَّمْ، والعِلْم: هو إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه في الواقع، أو تصور الشيء علىٰ طبق الواقع.

وإدراك الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه في الواقع، أو تصور الشيء علىٰ خلاف الواقع هو الجهل، وهو ضدُّ العلم.

قوله: «رحمك الله» هذا دعاءٌ لطالب العلم، فالشيخ يدعو لطلبة العلم بأن يرحمهم الله، وأن يلقي عليهم رحمتَه ﷻ، فهذا فيه التلطُّف من المعلِّم بالمتعلِّم، وأنه يبدأ بالكلام الطيِّب، والدعاء الصالح، حتىٰ يؤثِّر ذلك فيه، ويُقبِل علىٰ معلِّمه، أما إذا بدأ المعلِّم بالكلام القاسي، والكلام غير المناسب، فإن هذا يُنفِّره.

فالواجبُ علىٰ المعلِّم، وعلىٰ مَنْ يدعو إلىٰ الله، وعلىٰ مَنْ يأمرُ بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر: التلطُّف مع مَنْ يُخاطِبه بالدعاء له، والثناء عليه، والكلام الليِّن،

فإنَّ هذا أدعىٰ للقبول.

أما المعانِدُ والمكابرُ فإن هذا له خطابٌ آخر، قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

فالذين ظلموا من أهل الكتاب، وعاندوا، وكابروا هؤلاء لا يخاطَبون بالتي هي أحسن؛ بل يُخاطَبون بما يردَعُهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]. المنافقون لا يجاهدون بالسلاح، وإنما يجاهدون بالحجة والكلام والرَّدِّ عليهم بالغلظة ردعًا لهم وتنفيرًا للناس عنهم.

وقال تعالىٰ فيهم: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء:٦٣]. هؤلاء لهم خطابٌ خاصٌّ؛ لأنهم أهلُ عِنادٍ ومكابرة، ولا يريدون الحقَّ؛ بل يريدون تضليل الناس؛ فهؤلاء يُخاطبون بما يَليق بهم.

أما الطالب المسترشد فهذا يُخاطب بالرفق والرحمة واللُّطف؛ لأنه يريد الحقَّ، ويريد العلم والفائدة.

أَنَّه يجبُ علينا تعلُّمُ أربعِ مسائلَ [٣].

الأُولىٰ: العِلْمُ [٤].

قوله: «اعلم رحمك الله»: دعاء لك بالرحمة، فإذا رحمك الله، فإنك تكون سعيدًا بها في الدنيا والآخرة، إذا دخلت في رحمة الله، وهذا دعاء من عالم جليل، ورجل صالح يُرجَىٰ له القبولُ -إن شاء الله-.

[٣] قوله: «يجب»، الواجب: هو ما يُثابُ فاعلُه، ويعاقَبُ تاركُه، والمستحبُّ: هو ما يُثابُ فاعلُه ولا يعاقَبُ تاركُه، والمباح، لا ثواب في فعله ولا عقابَ في تركه.

فقوله: «يجب» يعني أن هذا الأمر ليس هو من المستحب، ولا من المباح؛ بل هو من الواجب العيني.

فإذا تركنا تعلُّمَ هذه المسائل فإننا نأثم؛ لأن هذا شأن الواجب، لم يقل: يُستحب لنا أو يستحسن لنا؛ بل قال: يجب علينا وجوبًا، والوجوب معناه: الحَتْم، من تَرَكه يأثم، ولأن العلم لا يُحصَلُ عليه إلا بالتعلُّم، والتعلُّم يحتاج إلىٰ عناية وجهد ووقت، ويحتاج إلىٰ فهم وإلىٰ حضور قلب، هذا هو التعلُّم.

قوله: «أربع مسائل»: يعني: مباحث، سُمِّيت مسائل؛ لأنها يجب أن يُسألَ عنها، ويُعنَىٰ بها.

[٤] قوله: «العلم»: المراد بالعلم هنا هو العلم الشرعي؛ لأنه هو الذي يجب تعلُّمه، وهذه المسائل يجب تعلُّمها علىٰ كلِّ مسلم ذكر أو أنثىٰ، حرٍّ أو عبدٍ، غنيٍّ أو فقير، مَلِكٍ أو صُعْلُوك؛ كل مسلم يجب عليه أن يتعلَّم هذه المسائل الأربع.

....

وهذا ما يسميه العلماء بـ: «الواجب العَيْنِيِّ»، وهو الذي يجب علىٰ كل أحد من المسلمين، فالصلوات الخمس علىٰ الرجال والنساء، وصلاة الجماعة في المساجد علىٰ الرجال، هذا واجب علىٰ كلِّ فرد من المسلمين أن يتعلَّمها، ولذلك قال: يجب علينا، ولم يقل: يجب علىٰ بعضنا، وإنما قال: يجب علينا، يعني: معشر المسلمين، فهذا من العلم الذي يجب تعلُّمه علىٰ الأعيان؛ لأن العلم علىٰ قسمين:

الأول: ما يجب تعلُّمه علىٰ الأعيان، فلا يُعذَرُ أحدٌ بجهله، وهو ما لا يستقيم الدينُ إلا به، مثل: أركان الإسلام الخمسة، التي هي: الشهادتان، وإقامُ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ بيت الله الحرام، لا يجوز لمسلم أن يجهلها؛ بل لابدَّ له أن يتعلَّمها.

لأن تعلُّمَ معنىٰ الشهادتين إنما هو تعلُّم العقيدة، يتعلَّم المسلم العقيدة من أجل العمل بها، ويتعلم ما يُضادها من أجل أن يتجنبه، هذا مضمون الشهادتين.

كذلك يتعلم أركان الصلاة، وشروط الصلاة، وواجبات الصلاة، وسنن الصلاة؛ لابدَّ أن يتعلَّم بالتفصيل هذه الأمور، ليس مجرد أنه يصلي وهو لا يعرف أحكام الصلاة، كيف يعمل الإنسان عملًا وهو لا يعلم هذا العمل الذي يؤديه؟ كيف يؤدي الصلاة، وهو جاهل بأحكامها؟ فلابدَّ أن يتعلَّم أحكام الصلاة، ومُبطلات الصلاة، لابدَّ من تعلُّم هذا.

كذلك يتعلم أحكام الزكاة، ويتعلم أحكام الصيام، ويتعلم أحكام الحج، فإذا أراد أن يحج وَجَبَ عليه تعلُّمُ أحكام الحج، وأحكام العمرة، من أجل أن يؤدي هذه العبادات علىٰ الوجه المشروع.

....

وهذا القسم لا يُعذر أحد بجهله، وهو ما يسمىٰ بالواجب العيني علىٰ كل مسلم.

القسم الثاني من أقسام العلم: هو ما زاد عن ذلك من الأحكام الشرعية التي تحتاجها الأمةُ بمجموعها، وقد لا يحتاجه كل أحد بعينه، مثل أحكام البيع وأحكام المعاملات، وأحكام الأوقاف، والمواريث، والوصايا، وأحكام الأنكحة، وأحكام الجنايات، هذه لابدَّ منها للأمَّة؛ لكن لا يجب علىٰ كل فرد من الأمة أن يتعلَّمها؛ بل إذا تعلَّمها مَنْ يَحصُل به المقصودُ من العلماء كفَىٰ هذا؛ ليقوموا بحاجة المسلمين من قضاء وإفتاء، وتعليم وغير ذلك، هذا يسمىٰ واجب الكفاية الذي إذا قام به مَنْ يكفي سَقَطَ به الإثمُ عن الباقين، وإذا تركه الجميع أَثموا جميعًا.

فلابدَّ للأمة من أناس يتعلَّمون هذا القسمَ؛ لأنهم بحاجة إليه؛ لكن ما يقال لكل واحد: يجب عليك أن تتفقه في هذه الأبواب؛ لأنه قد لا يتأتىٰ هذا لكل أحد، وإنما يختصُّ هذا بأهل القدرة وأهل الاستطاعة من الأمة؛ ولأنه إذا تعلَّم هذا بعضُ الأمة قام بالواجب بخلاف القسم الأول فكلُّ واحدٍ مسئول عنه بنفسه؛ لأنه لا يمكن أن يعمل هذه الأعمال إلا عن علم، ولهذا قال الشيخ: يجب علينا، ولم يقل: يجب علىٰ المسلمين؟ أو: يجب علىٰ بعضهم؛ بل قال: يجب علينا، أي: علىٰ كل واحد منا وجوبًا عينيًّا.

ولنعلم أيضًا قبل الدخول في المسائل: أن المراد بالعلم الذي يجب علىٰ الأمة إما وجوبًا عينيًّا، أو كفائيًّا، أنه العلم الشرعي الذي جاء به الرسول ﷺ.

أما العلم الدنيوي كعلم الصناعات والحِرَف والحساب والرياضيات والهندسة، فهذا العلم مباح، يُباح تعلُّمه، وقد يجب إذا احتاجت الأمةُ إليه، يجب علىٰ

....

من يستطيع؛ لكن ليس هو العلم المقصود في القرآن والسنة، والذي أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ أهله ومَدَحهم، والذي قال فيه النبي ﷺ: «**العلماء ورثةُ الأنبياء**»[١]. المراد: العلم الشرعي.

وأما العلم الدنيويُّ فمن جهله فلا إثم عليه، ومن تعلَّمه فهو مباح له، وإذا نفع به الأمة فهو مأجور عليه ومثاب عليه، ولو مات الإنسان وهو يجهل هذا العلم لم يؤاخذ عليه يوم القيامة؛ لكن من مات وهو يجهل العلم الشرعي خصوصًا العلمَ الضروري، فإنه يُسأل عنه يومَ القيامة، لِمَ لَمْ تتعلم؟ لماذا لَمْ تسأل؟ الذي يقول: إذا وضع في قبره: ربِّي الله، والإسلام ديني، ونبيي محمدٌ ﷺ هذا ينجو، يقال له: من أين حصَّلت هذا؟ يقول: قرأت كتاب الله وتعلمته.

أما الذي أعرَضَ عن ذلك فإنه إذا سئل في قبره فإنه يقول: هاه هاه، لا أدري سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه، فهذا يؤجَّج عليه قبره نارًا -والعياذُ بالله- ويضيَّقُ عليه فيه حتىٰ تختلف أضلاعُه، ويُصبح في حفرة من حُفَر النار؛ لأنه ما دَرَىٰ وما تلا، فيقال له: «**لا دَرَيْتَ، ولا تليت -أو: لا تلوت-**»[٢]. فهو لم يتعلم، ولم يقتدِ بأهل العلم، وإنما هو ضائع في حياته، فهذا الذي يئول إلىٰ الشَّقاء، والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل، بإثر الحديث (٦٧)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري مختصرًا من حديث أنس (١٣٣٨)، وأخرجه مسلم مختصرًا أيضًا من حديث أنس رضي الله عنه (٢٨٧٠)، وأخرجه أبو داود من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل (٤٧٥٣).

وهو معرفةُ الله، ومعرفةُ نبيِّه [٥].

فقوله: «العلم»: هذا هو العلم الشرعي المطلوب منا جماعةً وأفرادًا، وهو معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة حقه علينا، وهو عبادته وحدَه لا شريك له، فأولُ ما يجب على العبد هو معرفةُ ربه ﷻ وكيف يعبده.

[٥] قوله: «وهو معرفة الله» كيف يعرف العبد ربَّه؟ يعرفه بآياته، ومخلوقاته، فمن آياته: الليل والنهار، ومن مخلوقاته: الشمس والقمر، كما يأتي بيان هذا -إن شاء الله-.

يعرف الله بآياته الكونية وآياته القرآنية، إذا قرأ القرآن عرف الله ﷻ أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وأنه هو الذي سخَّر ما في السموات والأرض، وأنه هو الذي يحيي ويُميت، وهو على كل شيء قدير، وأنه الرحمن الرحيم، فالقرآن يعرِّف بالله ﷻ، وأنه هو الذي أنعم علينا بجميع النعم، وأنه هو الذي خلقنا ورزقنا، فإذا قرأت القرآن عرفت ربك ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله.

وإذا نظرت في الكون عرفت ربك ﷻ أنه هو الذي خلق هذا الخَلْق، وسَخَّر هذا الكون، وأجراه بحكمته وعلمه ﷻ، هذا هو العلم بالله ﷻ.

قوله: «ومعرفة نبيه»: هو محمد ﷺ لأنه هو المبلغ عن الله ﷻ، وهو الواسطة بيننا وبين الله ﷻ في تبليغ الرسالة، لابدَّ أن تعرفه، تعرف مَنْ هو؟ وتعرف نَسَبَه، وتعرف بلده، وتعرف ما جاء به ﷺ، تعرف كيف بدأه الوحي، وكيف قام بالدَّعوة إلى الله ﷻ في مكة والمدينة، تعرف سيرة الرسول ﷺ ولو باختصار.

ومعرفةُ دين الإسلام [٦] بالأدلة [٧].

الرسول ﷺ: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف إلىٰ آخر النسب النبوي الشريف الذي ينتهي إلىٰ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وتعرف كيف عاش قبل البعثة، وكيف جاءه الوحي من الله ﷻ، وماذا عمل -عليه الصلاة والسلام- بعد بعثته، تعرف ذلك بدراسة سيرته ﷺ، ولا يليق بالمسلم أن يجهل الرسول ﷺ، كيف تتبع شخصًا وأنت لا تعرفه؟! هذا غير معقول.

[٦] **قوله:** «معرفة دين الإسلام»: الذي هو دين هذا الرسول ﷺ؛ بل هو دين الله ﷻ الذي أمر به عباده، والذي أمرك باتباعه وأنت مطالب به، لابد أن تعرف هذا الدين، والإسلام هو دين جميع الرسل.

كل الرسل دينهم الإسلام بالمعنىٰ العام، فكل من اتبع رسولًا من الرسل فهو مسلم لله ﷻ منقاد له، موحد له، هذا الإسلام بمعناه العام، إنه دين الرسل جميعًا، فالإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله.

أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ؛ لأنه بعد بعثة الرسول ﷺ لا دين إلا دينه -عليه الصلاة والسلام-، والإسلام انحصر في اتباعه ﷺ فلا يمكن لليهودي أن يقول: أنا مسلم، أو النصراني يقول: أنا مسلم بعد بعثة النبي ﷺ وهو لا يتبعه، فالإسلام بعد بعثة النبي هو اتباعه ﷺ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]. هذا هو الإسلام بمعناه العام، وبمعناه الخاص.

[٧] قوله: «بالأدلة»: لا بالتقليد؛ وإنما بالأدلة من القرآن، ومن السنة؛ هذا هو العلم.

العمل بالعلم

الثانية: العمل به [٨].

قال ابن القيم في الكافية الشافية:

العِلْمُ قال الله قال رسولُهُ ... قالَ الصحابةُ هُمْ أُولُو العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأي فلان

هذا هو العلم، العلم هو علم الكتاب والسنة، أما أقوال العلماء فهي تشرح وتوضح فقط كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وقد يكون فيها أو في بعضها خطأ، والأدلة ليست كلام العلماء، إنما الأدلة هي الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأما كلام العلماء فهو شارح وموضح ومبين لذلك لا أنه دليل في نفسه.

هذه هي المسألة الأولىٰ، وهي الأساس، بدأ بها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنها هي الأساس، وإنما يُبدأ بالعقيدة وبالأساس بالتعلُّم والتعليم والدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، يبدأ بالعقيدة؛ لأنها هي الأصل، وهي الأساس.

[٨] قوله: «العمل به» أي: بالعلم؛ لأنه لا يكفىٰ أن الإنسان يعلِّم ويتعلَّم؛ بل لابد أن يعمل بعلمه، فالعلم بدون عمل إنما هو حجة علىٰ الإنسان، فلا يكون العلم نافعًا إلا بالعمل، أما مَنْ عَلِمَ ولم يعمل فهذا مغضوب عليه؛ لأنه عرف الحق وتركه علىٰ بصيرة.

والناظم يقول:

وعالِم بعلمه لَم يعملَنْ معذبٌ من قَبْلِ عُبَّادِ الوثن

وهذا مذكورٌ في الحديث الشريف: «**إن من أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، عالم لم يعمل بعلمه**»[1] العلم مقرون بالعمل، والعمل هو ثمرة العلم، فعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر، لا فائدة فيها، والعلم إنما أُنزل من أجل العمل.

كما أن العمل بدون علم يكون وبالًا وضلالًا علىٰ صاحبه، إذا كان الإنسان يعمل بدون علم، فإن عمله وبال وتعب علىٰ صاحبه، قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[2]، ولهذا نقرأ في الفاتحة في كل ركعة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

فسمىٰ الله الذين يعملون بدون علم: الضالين، والذين يعلمون ولا يعملون بالمغضوب عليهم، فلنتنبه لذلك، فإنه مهم جدًّا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢) وهو حديث طويل، وفيه: «**أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة**». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا قبل الحديث (٧٣٥٠)، ومسلم (١٨)(١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرج البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧)(١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**».

الدعوة إلى العلم

الثالثة: الدَّعوة إليه [٩].

[٩] قوله: «الدعوة إليه» أي: لا يكفي أن يتعلم الإنسان ويعمل في نفسه، ولا يدعو إلىٰ الله ﷻ؛ بل لابد أن يدعو غيره فيكون نافعًا لنفسه، ونافعًا لغيره، ولأن هذا العلم أمانة، ليس بملك لك تختزنه وتحرم الناس منه، والناس بحاجة إليه، فالواجب عليك التبليغ والبيان ودعوة الناس إلىٰ الخير، هذا العلم الذي حمَّلك الله إياه ليس وقفًا عليك، وإنما هو لك ولغيرك، فلا تحتكره علىٰ نفسك، وتمنع الناس من الانتفاع به؛ بل لابد من تبليغه، ولابد من بيانه للناس، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

هذا ميثاق أخذه الله علىٰ العلماء أن يبينوا للناس ما علَّمهم الله من أجل أن ينشروا الخير، ويخرجوا الناس من الظلمات إلىٰ النور، وهذا عمل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ومن اتبعهم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]. هذه طريقة الرسول ﷺ، وطريقة أتباعه، العلم والعمل والدعوة إلىٰ الله ﷻ، فمن لم يدعُ وهو قادر علىٰ الدعوة، وعنده علم، وكتمه، فإنه يلجم بلجام من نار يوم القيامة كما في الحديث[١].

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١ و٢٦٦) من حديث =

الصبر على الأذى فيه

الرَّابعة: الصَّبرُ علىٰ الأذىٰ فيه [١٠].

[١٠] **قوله:** «الصبر علىٰ الأذىٰ فيه»: معلوم أن من دعا الناس، وأمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر، فإنه سيتعرض للأذىٰ من الأشرار؛ لأن كثيرًا من الناس لا يريدون الخير؛ بل يريدون الشهوات، والمحرمات والأهواء الباطلة، فإذا جاء من يدعوهم إلىٰ الله، ويردهم عن شهواتهم، فلابد أن يكون منهم ردُّ فعل بالقول أو بالفعل.

فالواجب علىٰ من يدعو إلىٰ الله، ويريد وجه الله: أن يصبر علىٰ الأذىٰ، وأن يستمر في الدعوة إلىٰ الله، وقدوته في ذلك الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

وخيرتهم وخاتمهم محمد ﷺ ماذا لقي من الناس؟ وكم لقي من الأذىٰ بالقول والفعل؟ قالوا: ساحر وكذاب، وقالوا: مجنون. وقالوا فيه من الأقوال التي ذكرها الله ﷻ في القرآن، وتناولوه بالأذىٰ، قذفوه بالحجارة حتىٰ أدموا عقبه ﷺ

=

أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سُئل عن علم فكتمه؛ ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»، وابن ماجه (٢٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كتم علمًا مما ينفع الله به في أمر الناس، أمر الدين، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**».

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣][١١].

لما دعاهم إلىٰ الله ﷻ، وألقوا سلا جزور علىٰ ظهره وهو ساجد عند الكعبة، وتوعدوه بالقتل وهدَّدوه، وفي غزوة أُحُد جرىٰ عليه وعلىٰ أصحابه ما جرىٰ -عليه الصلاة والسلام-، كسروا رباعيته وشجوه في رأسه ﷺ، وقع في حفرة، وهو نبي الله، كل هذا أذىٰ في الدعوة إلىٰ الله ﷻ لكنه صبر وتحمل وهو أفضل الخلق -عليه الصلاة والسلام-، فلابد للذي يقوم بهذه الدعوة أن يتعرض للأذىٰ علىٰ حسب إيمانه ودعوته؛ ولكن عليه أن يصبر، ما دام أنه علىٰ حق فإنه يصبر ويتحمل، فهو في سبيل الله وما يناله من الأذىٰ فهو في كفة حسناته؛ أجر من الله سبحانه وتعالى.

[١١] هذه المسائل الأربع يجب أن تتعلَّمها بالتفصيل، هل من دليل علىٰ ما قاله الشيخ؟ إن هذه المسائل الأربع يجب علينا تعلمها، وهو وعدنا أنه لا يقول شيئًا إلا بدليل، فأين الدليل؟

قال: الدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]. إلا الذين آمنوا، هذه هي المسألة الأولىٰ: العلم؛ لأن الإيمان لا يكون إلا بعلم، وهو معرفة الله ﷻ، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

المسألة الثانية: وعملوا الصالحات، هذا العمل بالعلم.

المسألة الثالثة: وتواصوا بالحق، فهذه الدعوة إلىٰ العلم والعمل.

المسألة الرابعة: وتواصوا بالصبر علىٰ الأذىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ العلم والعمل.

فقوله سبحانه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾.

الواو: واو القسم.

والعصر: اسم مقسم به مجرور وعلامة جره الكسرة، والمراد به: الوقت والزمان، أقسم الله تعالىٰ بالزمان والوقت وهو مخلوق، والله -جل وعلا- يقسم بما شاء من الخلق، والمخلوق لا يقسم إلا بالله، والله لا يقسم إلا بشيء له أهمية، وفيه آية من آياته ﷻ، فهذا الزمان فيه عبرة وله أهمية، ولذلك أقسم الله بالعصر، وبالليل إذا يغشىٰ، وأقسم بالضحىٰ.

أما المخلوق فإنه لا يقسم إلا بالله، ولا يجوز لنا أن نحلف بغير الله، قال ﷺ: **«من حلف بغير الله، فقد كفر أو أشرك»**[(١)].

وقال: **«من كان حالفًا فليحلف بالله، أو ليصمت»**[(٢)].

فالله يقسم بما شاء، ولا يقسم إلا بما له أهمية وفيه عبرة، ما هي العبرة في هذا الزمان؟ العبر عظيمة تعاقب الليل والنهار، وتقارضهما، هذا يأخذ من هذا، وهذا يأخذ من هذا، يطول هذا، ويقصر هذا، تعاقبهما علىٰ هذا النظام العجيب الذي لا يتخلف ولا يتغير.

هذا دليل علىٰ قدرة الله ﷻ، ثم ما يجري في هذا الوقت من الحوادث والكوارث، ومن المصائب، ومن النعم ومن الخيرات، ما يجري في هذا الوقت هذا من العبر.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦)(٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

....

وكذلك فإن الليل والنهار مجال للعمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾؛ أي: يتعاقبان، يخلف هذا هذا: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]. وفي بعض القراءات: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذْكُرَ﴾.

فالليل والنهار كسب عظيم لمن استغلهما في طاعة الله ﷻ، ومجال العمل هو الليل والنهار، ما عندك غير الليل والنهار، هما مجال العمل والكسب الطيب للدنيا والآخرة، في الليل والنهار عبر وفوائد لذلك أقسم الله بالعصر.

ما هو جواب القسم؟

هو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ الإنسان جميع بني آدم لم يستثن أحدًا لا الملوك ولا الرؤساء، ولا الأغنياء، ولا الفقراء، ولا الأحرار، ولا العبيد، ولا الذكور، ولا الإناث، فـ «أل» في الإنسان للاستغراق، كل بني آدم في خسر، أي: في خسارة وهلاك إذا ضيعوا هذا الوقت الثمين، واستعملوه في معصية الله، وفيما يضرهم.

وهذا الوقت الذي هو رخيص عند كثير من الناس، يطول عليهم الوقت، يملُّون ويقولون: نريد قتل الوقت، يأتون بالملهيات، أو يسافرون للخارج لقضاء العطلة والوقت، أو يضحكون ويمزحون لقطع الوقت، فهؤلاء الذين قطعوه وضيعوه سيكون خسارة وندامة عليهم يوم القيامة، وهو مصدر سعادتهم لو حافظوا عليه.

فجميع بني آدم في خسارة وهلاك إلا من اتصف بأربع صفات هي: العلم، والعمل، والدعوة إلىٰ الله، والصبر علىٰ الأذىٰ.

فمن اتصف بهذه الصفات الأربع نَجَا من هذه الخسارة.

ولا يمكن الإيمان بالله إلا بالعلم الذي هو معرفة الله.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحة من واجبات، ومستحبات فاستغلوا وقتهم بعمل الصالحات بما يفيدهم في دينهم ودنياهم، حتىٰ العمل للدنيا فيه خير وفيه أجر إذا قصد به الاستعانة علىٰ الطاعة، فكيف بالعمل للآخرة، المهم أنك لا تضيع الوقت؛ بل تستعمله في شيء يفيدك وينفعك.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ودعوا إلىٰ الله ﷻ، وعلَّموا العلم النافع، ونشروا العلم والخير في الناس، أصبحوا دعاة إلىٰ الله ﷻ.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ صبروا علىٰ ما ينالهم، والصبر في اللغة: الحبس، والمراد به هنا: حبس النفس علىٰ طاعة الله، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: صبر علىٰ طاعة الله.

الثاني: صبر عن محارم الله.

الثالث: صبر علىٰ أقدار الله.

فالأول: صبر علىٰ طاعة الله؛ لأن النفس تريد الكسل، وتريد الراحة، فلابد أن يصبِّرها الإنسان علىٰ الطاعة، وعلىٰ الصلاة، وعلىٰ الصيام، وعلىٰ الجهاد في سبيل الله، وإن كانت تكره هذه الأمور، يصبِّرها ويحبسها علىٰ طاعة الله.

والثاني: صبر عن محارم الله، النفس تريد المحرمات، والشهوات، إنها تميل إليها، وتنزع إليها، فلابد أن يربطها ويحبسها عن المحرمات، وهذا يحتاج إلىٰ صبر، وليس من السهل منع النفس عن الشهوات المحرمة، من ليس عنده صبر فإن نفسه تتغلب عليه، وتجنح إلىٰ المحرمات.

الثالث: الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة، المصائب التي تصيب الإنسان من موت قريب، أو ضياع مال، أو مرض يصيب الإنسان، لابد أن يصبر علىٰ قضاء الله وقدره؛ لا يجزع ولا يتسخط؛ بل يحبس اللسان عن النياحة والتسخط، ويحبس النفس عن الجزع، ويحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، هذا هو الصبر علىٰ المصائب.

أما المعائب فلا يصبر عليها؛ بل يتوب إلىٰ الله، وينفر منها؛ ولكن عند المصائب التي لا دخل لك فيها؛ بل هي من الله ﷻ قدَّرها عليك ابتلاءً وامتحانًا أو عقوبة لك علىٰ ذنوب فعلتها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ:٣٠].

فإذا حصلت للمسلم مصيبة في نفسه، أو ماله، أو ولده، أو قريبه، أو أحد إخوانه من المسلمين فعليه بالصبر والاحتساب، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧]. هذا هو الصبر.

ومن ذلك: الصبر علىٰ الأذىٰ في الدعوة إلىٰ الله ﷻ فإن هذا من المصائب، فعليك أن تصبر علىٰ ما تلقىٰ من الأذىٰ في سبيل الخير، ولا تنثني عن فعل الخير؛ لأن بعض الناس يريد فعل الخير لكن إذا واجهه شيء يكرهه قال: ليس من الواجب عليَّ أن أدخل نفسي في هذه الأمور، ثم يترك التعليم إن كان معلمًا، يترك الدعوة إلىٰ الله، يترك الخطابة إن كان خطيب مسجد، يترك إمامة المسجد، يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا لم يصبر علىٰ ما ناله من الأذىٰ.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لوْ ما أنزَلَ الله حجَّةً علىٰ خلقه إلا هذه السورةَ لكفتهم[١٢].

وإذا كنت مخطئًا عليك بالرجوع إلىٰ الحق والصواب، أما إن كنت علىٰ حق ولم تخطئ فعليك بالصبر والاحتساب، واستشعر أن هذا في سبيل الله عَجَّلَ وأنك مأجور عليه، وتذكر ما حصل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، من الأذىٰ وكيف صبروا وجاهدوا في سبيل الله حتىٰ نصرهم الله عَجَّلَ .

[١٢] قوله: «الشافعي»: هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي نسبه إلىٰ جده الرابع اسمه شافع، وهو من قريش، من بني المطلب، توفي سنة ٢٠٤هـ، وهو أحد الأئمة الأربعة، وقال هذه المقالة؛ لأن الله بيَّن في هذه السورة أسباب الشقاوة وأسباب السعادة.

فأسباب السعادة: أن يتصف الإنسان بهذه الصفات الأربع: العلم، والعمل، والدعوة، والصبر علىٰ الأذىٰ في سبيل الله تعالىٰ، فقامت الحجة من الله علىٰ خلقه بهذه السورة، إن الله سبحانه يقول لهم: إنِّي قد بينت لكم أسباب السعادة في هذه السورة القصيرة المختصرة.

والقرآن كله، والسنة هُما تفاصيل لهذه المسائل الأربع، لكن هذه السورة بينت أسباب السعادة مجملة، فقامت بها الحجة علىٰ الخلق، وبقية نصوص القرآن والسُّنة مفصِّلة ومبيِّنة لهذه المسائل الأربع، وليس معنىٰ كلام الشافعي أن هذه السورة تكفي الناس، لو ما أنزل الله غيرها لكنها أقامت الحجة عليهم؛ لأن الله بيَّن فيها أسباب السعادة، وأسباب الشقاوة، فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لا أعرف أسباب السعادة، ولا أعرف أسباب الشقاوة وهو يقرأ هذه السورة المختصرة الوجيزة.

وقال البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: بابُ العلم قبل القول والعمل.

والدليل: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [محمد:١٩].

فبدأ بالعِلمِ قَبْلَ القولِ والعملِ [١٣].

---

[١٣] البخاري: هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، نسبة إلىٰ بخارىٰ بلدة في المشرق، إمام أهل الحديث وجبل الحفظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صاحب «الصحيح» الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله.

قوله: «العلم قبل القول والعمل»؛ لأن العمل لا ينفع إلا إذا كان مبنيًّا علىٰ علم، أما العمل المبني علىٰ جهل فإنه لا ينفع صاحبه؛ بل يكون وبالًا وضلالًا عليه يوم القيامة، فلابد أن يقدَّم تعلُّم العلم قبل العمل.

قوله: «والدليل» أي: علىٰ هذه الترجمة قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ حيث بدأ بالعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾ هذا هو العمل، فبدأ سبحانه بالعلم قبل العمل؛ لأن العمل إذا كان علىٰ جهل فإنه لا ينفع صاحبه، فيبدأ الإنسان بالعلم أولًا ثم يعمل بما علمه، هذا هو الأساس.

الرسالة الثانية :
ثلاث مسائل يجب على المسلم تعلمها والعمل بها

اعلم -رَحِمك الله- [١].

أَنَّه يَجبُ علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة تعلُّمُ ثلاث هذه المسائل والعملُ بهنَّ [٢].

---

[١] قوله: «اعلم»: هذه الكلمة قلنا فيما سبق: إنها كلمة يؤتىٰ بها للاهتمام بما بعدها، ومعناها: تعلم وافهم وتيقن.

قوله: «رحمك الله»: هذا دعاء لك بالرحمة، وهذا أيضًا كما سبق في أن المعلِّم ينبغي أن يتلطف مع المتعلِّم، وأن يدعو له ويرغبه، فإن هذا من أعظم وسائل التعليم، ولا ينبغي له أن يقابل المتعلِّم بالقسوة والشدة والغلظة؛ لأن هذا ينفِّر عن العلم، ثم هذا أيضًا يدل علىٰ النصح من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنه يريد النصيحة والمنفعة والتوجيه السديد.

[٢] قوله: «أنه يجب»: الوجوب معروف عند الأصوليين، والواجب هو الشيء الذي لابد منه، وقد عرفه الأصوليون بأنه ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه، وأصل الوجوب في اللغة: الثبوت والاستقرار، يقال: وجب كذا، أي: ثبت واستقر، قال تعالىٰ في البُدن: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت علىٰ الأرض، واستقرت ميتة بعد تذكيتها، ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟﴾[الحج:٣٦].

....

فقوله: «يجب»، يدل علىٰ أن الأمر ليس من باب الاستحباب، من شاء فعل ومن شاء ترك؛ بل الأمر من باب الإلزام من الله ﷻ، ليس هذا الإيجاب من قِبَلِ الشيخ، وإنما هو من قِبَلِ الله ﷻ فيما أنزل في الكتاب والسنة من إلزام العباد بهذه المسائل.

قوله: «يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة»، أي: يجب علىٰ كل ذكر وأنثىٰ من المسلمين سواء كانوا أحرارًا أو عبيدًا، أو ذكورًا أو إناثًا؛ لأن المرأة تشارك الرجل في كثير من الواجبات إلا ما خصَّه الدليل بالرجال، فإنه يختص بهم، مثل وجوب صلاة الجماعة في المساجد، وصلاة الجمعة، ومثل زيارة القبور فإنَّها خاصَّة بالرجال، ومثل الجهاد في سبيل الله، فإنه خاصٌّ بالرجال.

فما دل الدليل علىٰ اختصاصه بالرجال فإنه يختص بهم، وإلا فإن الأصل أن الرجال والنساء سواء في الواجبات وتجنب المحرمات، وسائر التكاليف.

ومن ذلك: أن تعلُّم العلم واجب علىٰ الرجال والنساء؛ لأنه لا يمكن عبادة الله -جل وعلا- التي خلقنا من أجلها إلا بتعلم العلم الذي نعرف به عبادة ربنا، فهذا واجب علىٰ الرجال والنساء أن يتعلموا أمور دينهم لاسيما أمور العقيدة.

قوله: «ثلاث مسائل»: التعلم هنا معناه: التلقي عن العلماء والحفظ والفهم والإدراك، هذا هو التعلم، ليس المراد مجرد قراءة أو مطالعة حرة كما يسمونها، هذا ليس تعلُّمًا إنما التعلُّم هو: التلقِّي عن أهل العلم مع حفظ ذلك وفهمه وإدراكه تمامًا، هذا هو التعلُّم الصحيح.

الإيمان بأن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً

الأولىٰ: أن الله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هَمَلًا [٣].

أما مجرد القراءة والمطالعة فإنها لا تكفي في التعلُّم وإن كانت مطلوبة وفيها فائدة؛ لكنها لا تكفي، ولا يكفي الاقتصار عليها.

ولا يجوز التتلمذ علىٰ الكتب كما هو الواقع في هذا الوقت؛ لأن التتلمذ علىٰ الكتب خطير جدًّا يحصل منه مفاسد وتعالم أضرُّ من الجهل؛ لأن الجاهل يعرف أنه جاهل ويقف عند حدِّه، لكن المتعالم يرىٰ أنه عالم فيحلُّ ما حرَّم الله، ويحرِّم ما أحل الله، ويتكلم ويقول علىٰ الله بلا علم، فالمسألة خطيرة جدًّا.

فالعلم لا يؤخذ من الكتب مباشرة، إنما الكتب وسائل، أما حقيقة العلم فإنها تؤخذ عن العلماء جيلًا بعد جيل، والكتب إنما هي وسائل لطلب العلم.

[٣] **قوله:** «الأولىٰ: أن الله خلقنا». أي: أوجدنا من العدم، فنحن من قبل أن يخلقنا لم نكن شيئًا، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]. كان الإنسان قبل أن يخلق ليس بشيء، والذي أوجده وخلقه هو الله ﷻ قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

قوله: «ورزقنا»: لما كنا نحتاج إلىٰ الرزق إلىٰ الطعام والشراب والملابس والمساكن والمراكب والمصالح، علم سبحانه حاجتنا فسخر لنا ما في السموات والأرض كله لمصالحنا من أجل بقائنا علىٰ قيد الحياة، ومن أجل أن نستعين بذلك علىٰ ما خلقنا لأجله، وهو عبادة الله سبحانه وتعالى .

قوله: «ولم يتركنا هملًا»: الهمل: هو الشيء المهمل المتروك الذي لا يُعبأ به؛ فالله خلقنا ورزقنا لحكمة، ما خلقنا عبثًا ولا سدًىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[القيامة:٣٦-٣٨].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[ص:٢٧].

الله إنما خلقنا وخلق لنا هذه الأرزاق، والإمكانيات لحكمة عظيمة وغاية جليلة وهي أن نعبده سبحانه وتعالى، ولم يخلقنا كالبهائم التي خلقت لمصالح العباد ثم تموت وتذهب؛ لأنها ليست مكلَّفة ولا مأمورة ولا منهية، إنما خلقنا لعبادته كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨].

ولم يخلقنا لهذه الحياة الدنيا فقط نعيش فيها، ونسرح ونمرح، ونأكل ونشرب، ونتوسع فيها، وليس بعدها شيء، وإنما الحياة مزرعة وسوق للدار الآخرة نتزود فيها بالأعمال الصالحة، ثم نموت وننتقل منها، ثم نبعث ثم نحاسب ونجازىٰ بأعمالنا.

هذه هي الغاية من خلق الجن والإنس، والدليل علىٰ ذلك آيات كثيرة تدلُّ علىٰ البعث والنشور والجزاء والحساب، والعقل يدلُّ علىٰ هذا، فإنه لا يليق بحكمة الله ﷻ أن يخلق هذا الخلق العجيب، وأن يسخر هذا الكون لبني آدم ثم يتركهم يموتون ويذهبون بدون نتيجة، هذا عبث، فلابد أن تظهر نتائج هذه الأعمال في الدار الآخرة.

ولهذا قد يكون من الناس من يفني عمره في عبادة الله وفي طاعته، وهو في فقر وفي حاجة، وقد يكون مظلومًا مضغوطًا عليه ومضيقًا عليه ولا ينال شيئًا من جزاء عمله في هذه الدنيا، وعلىٰ العكس يكون من الناس كافر ملحد شرير يسرح ويمرح في هذه الحياة، ويتنعَّم ويُعطَىٰ ما يشتهي، ويرتكب ما حرَّم الله، ويظلم العباد ويعتدي عليهم، ويأكل أموالهم، ويقتل بغير حقٍّ ويتسلط ويتجبر ثم يموت علىٰ حاله، ما أصابه شيء من العقوبة.

هل يليق بعدل الله ﷻ وحكمته أن يترك هذا المطيع بدون جزاء، وأن يترك هذا الكافر بدون مجازاة، هذا لا يليق بعدله ﷻ؛ ولذلك جعل دارًا أخرىٰ يجازَىٰ فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فتظهر فيها ثمرات الأعمال.

فالدنيا دار عمل، وأما الآخرة فهي دار جزاء إما جنة، وإما نار، ولم يتركنا هملًا كما يظن الملاحدة والدهريون، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]. هذه مقالة الملاحدة الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور.

وقد أنكر الله ﷻ عليهم فقال: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

بل أرسلَ إلينا رسولًا[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية:٢١] .

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨] . فهذا لا يمكن، ولا يكون أبدًا.

[٤] لما كانت العبادة لا يجوز أن نأخذها من استحساننا أو تقليد فلان وعلان من الناس، أرسل الله إلينا رسلًا تبين لنا كيف نعبده؛ لأن العبادات توقيفية لا يجوز أن يعبد الله بشيء إلا بما شرعه.

فالعبادات توقيفية علىٰ ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فالحكمة من إرسال الرسل أن يبيِّنوا للناس كيف يعبدون ربهم، وينهونهم عن الشرك والكفر بالله ﷻ .

هذه مهمة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ولهذا يقول -عليه الصلاة والسلام-: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١) . فالعبادة توقيفية، والبدع مردودة، والخرافات مردودة، والتقليد الأعمىٰ مرفوض؛ لا تؤخذ العبادات إلا من الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ .

قوله: «بل أرسل إلينا رسولًا»: هو محمد ﷺ خاتم النبيين؛ أرسله ليبيِّن لنا لماذا خلقنا، ويبين لنا كيف نعبد الله ﷻ ، وينهانا عن الشرك والكفر والمعاصي، هذه مهمة الرسول ﷺ وقد بلغ البلاغ المبين، وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأمة -عليه الصلاة

---

(١) سبق تخريجه (ص١٨).

فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار [٥].

والسلام-، وبيَّن ووضَّح، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وهذا كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

[٥] قوله: «من أطاعه» أي: فيما أمر به؛ دخل الجنة.

وقوله: «ومن عصاه» أي: فيما نهىٰ عنه؛ دخل النار.

وهذا مصداقه كثير في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور:٥٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦].

فمن أطاعه اهتدىٰ ودخل الجنة، ومن عصاه ضلَّ ودخل النار، قال ﷺ: «كلكم يدخل الجنة إلا من أبىٰ. قالوا: يا رسول الله، ومن يأبىٰ؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ»[1].

فقوله ﷺ: «أبىٰ». أي: أبىٰ أن يدخل الجنة. وقال ﷺ: «لا يسمع بي يهودي، ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا دخل النار»[2]. فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وهذا هو الفارق بين المؤمن والكافر.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٥-١٦][٦].

---

[٦] **قوله:** «والدليل». أي: علىٰ إرسال الرسول، **قولُه تعالىٰ:** ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ﴾: الضمير راجع إلىٰ الله ﷻ، وهذا ضمير المعظم نفسه؛ لأنه عظيم ﷻ.

﴿أَرْسَلْنَآ﴾: كذلك هذا ضمير العظمة. ومعنىٰ أرسلنا: بعثناه وأوحينا إليه.

﴿إِلَيْكُمْ﴾: يا معشر الثقلين الجن والإنس، خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالة هذا الرسول عامة لجميع الناس إلىٰ أن تقوم الساعة.

﴿رَسُولًا﴾: هو محمد ﷺ.

﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾: أي: عند الله ﷻ يومَ القيامة بأنه بلَّغكم رسالة الله، وأقام الحجة عليكم كما قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لم أدْرِ أني مخلوق للعبادة، أنا لم أدر ماذا يجب عليَّ، ولم أَدْرِ ماذا يحرم عليَّ، لا يمكن أن يقول هذا؛ لأن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد بلغتهم، وهذه الأمة المحمدية تشهد عليهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

فهذه الأمة تشهد على الأمم السابقة يوم القيامة أن رسلها بلغتها رسالات الله، بما يجدونه من كتاب الله ﷻ؛ لأن الله قصَّ علينا نبأ الأمم السابقة والرسل وما قالوه لأممهم.

كل هذا عرفناه من كتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾: وهو محمد ﷺ عليكم، يا أمة محمد شهيدًا، يشهد عليكم عند الله أنه أقام عليكم الحجة، وبلغكم الرسالة، ونصحكم في الله، فلا حجة لأحد يوم القيامة بأن يقول: ما بلغني شيء، ما جاءني من نذير، حتى الكفار يعترفون عندما يلقون في النار، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك:٨-٩]. يقولون للرسل: أنتم في ضلال، فهم يكذِّبون الرسلَ ويضللونهم.

هذه الحكمة في إرسال الرسل؛ إقامة الحجة على العباد، وهداية من أراد الله هدايته، الرسل يهدي الله بهم من يشاء، ويقيم الحجة على من عاند وجحد وكفر.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾: الرسول هو موسى -عليه الصلاة والسلام-، وفرعون هو الملك الجبار في مصر الذي ادعى الربوبية، وفرعون: لقب لكل من ملك مصر، يقال له: فرعون، والمراد به هنا فرعون الذي ادعى الربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

....

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾: هو موسىٰ، كفر به فرعون كما قص الله في كتابه ما جرىٰ بين موسىٰ وفرعون، وما انتهىٰ إليه أمر فرعون وقومه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾؛ أي: أخذنا فرعون بالعقوبة، وهو أن الله أغرقه هو وقومه في البحر، ثم أدخلهم النار: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح:٢٥]. فصار في النار في البرزخ.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]. هذا في البرزخ قبل الآخرة، يعرضون علىٰ النار صباحًا ومساءً إلىٰ أن تقوم الساعة، وهذا دليل علىٰ عذاب القبر -والعياذ بالله-: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

هذه ثلاث عقوبات:

الأولىٰ: أن الله أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثانية: أنهم يعذبون في البرزخ إلىٰ أن تقوم الساعة.

الثالثة: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب -والعياذ بالله-.

وكذلك من عصىٰ محمدًا ﷺ فإن مآله أشد من مآل قوم فرعون؛ لأن محمدًا هو أفضل الرسل فمن عصاه تكون عقوبته أشد.

﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: شديدًا قويًّا لا هوادة فيه، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

فهذه الآية دليل علىٰ منَّة الله علينا بإرسال الرسول محمد ﷺ إلينا، وأن الغرض من إرساله أن يبين لنا طريق العبادة، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، كما دخل آل فرعون النار، لما عصوا رسولهم موسىٰ -عليه الصلاة والسلام-.

وكذلك أعداء الرسل كلهم هذا سبيلهم وهذا طريقهم.

الله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد

المسألة الثانية: أنَّ الله لا يرضىٰ أن يشرك مَعَهُ أحدٌ غيرُه في عبادَته [٧].

---

[٧] هذه المسألة متعلقة بالمسألة الأولىٰ؛ لأن الأولىٰ: هي بيان وجوب عبادة الله، واتباع الرسولﷺ، وهو معنىٰ الشهادتين، معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله.

والمسألة الثانية: أن العبادة إذا خالطها شرك فإنها لا تقبل؛ لأنه لابد أن تكون العبادة خالصة لوجه الله عز وجل .

فمن عبد الله وعبد معه غيره فعبادته باطلة، وجودها كعدمها؛ لأن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص والتوحيد، فإذا خالطها شرك فسدت؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨].

فالعبادة لا تُسمَّىٰ عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمَّىٰ صلاة إلا مع الطهارة، فإذا خالط الشركُ العبادةَ أفسدها، كما أن الطهارة إذا خالطها ناقض من نواقض الوضوء أفسدها وأبطلها، ولهذا يجمع الله في كثير من الآيات بين الأمر بعبادته والنهي عن الشرك.

....

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ [النساء:٣٦].

وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥].

وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ فيه أمران: فيه نفي الشرك، وفيه إثبات العبادة لله تعالىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]. ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل:٣٦]. قرن بين عبادة الله، واجتناب الطاغوت؛ لأن عبادة الله لا تكون عبادةً إلا مع اجتناب الطاغوت، وهو الشرك، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فالإيمان بالله لا يكفي إلا مع الكفر بالطاغوت، وإلا فالمشركون يؤمنون بالله؛ لكنهم يشركون به، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦]. بين سبحانه أن عندهم إيمان بالله؛ ولكن يفسدونه بالشرك -والعياذ بالله-.

هذا معنىٰ قول الشيخ: أن من عبد الله، وأطاع الرسول، فإنه لا يشرك بالله شيئًا؛ لأن الله لا يرضىٰ أن يُشرك معه أحد في عبادته.

قال ﷺ فيما يرويه عنه ربه ﷻ: «قال الله تعالىٰ: **أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هناك قوم يصلون، ويشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويكثرون من ذلك، ويصومون، ويحجون؛ لكنهم يدعون الأضرحة، ويعبدون الحسن والحسين والبدوي وفلانًا وعلانًا، ويستغيثون بالأموات، هؤلاء عبادتهم باطلة؛ لأنهم يشركون بالله ﷻ، يخلطون العبادة بالشرك، فعملهم باطل حابط حتىٰ يوحدوا الله ﷻ ويخلصوا له العبادة ويتركوا عبادة ما سواه.

وإلا فإنهم ليسوا علىٰ شيء، فيجب التنبه لهذا؛ لأن الله لا يرضىٰ أن يُشرَك معه في عبادته أحد كائنًا من كان، لا يرضىٰ سبحانه بمشاركة أحد مهما كان؛ لئلا يقول أحد: أنا أتخذ من الأولياء والصالحين والطيبين شفعاء، أنا لا أعبد الأصنام والأوثان كما هو في الجاهلية، أنا أتَّخذ هؤلاء شفعاء، لا أعبدهم.

فنقول له: هذه مقالة الجاهلية، اتخذوهم شفعاء عند الله؛ لأنهم صالحون وأولياء من أولياء الله، والله لا يرضىٰ بهذا.

لا ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسل [٨].

[٨] قوله: «لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل» الملك المقرب هو أفضل الملائكة، مثل: جبريل عليه السلام، وحملة العرش ومن حوله، والملائكة المقربون من الله سبحانه وتعالى، فمع قرب المكان من الله عز وجل ، وقرب العبادة والمكانة عند الله، لو أشركهم أحد مع الله في العبادة، فإن الله لا يرضىٰ بأن يُشرَك معه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كمحمد صلى الله عليه وسلم، وعيسىٰ، ونوح، وإبراهيم أولي العزم، لا يرضىٰ أن يُشرَك معه أحد، ولو كان من أفضل الملائكة، ولو كان من أفضل البشر.

فهو لا يرضىٰ أن يشرك معه أحد من الملائكة، ولا من الرسل، فكيف بغيرهم من الأولياء والصالحين، فغير الملائكة والرسل من باب أولىٰ ألاَّ يرضىٰ الله بإشراكهم معه في العبادة، وهذا ردٌّ علىٰ أولئك الذين يزعمون أنهم يتخذون الصالحين والأولياء شفعاء عند الله ليقربوهم عند الله زلفىٰ، كما قال أهل الجاهلية: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

وإلا فهم يعتقدون أن هؤلاء لا يخلقون، ولا يرزقون، ولا يملكون موتًا، ولا حياةً ولا نشورًا، وإنما قصدهم التوسط عند الله عز وجل ؛ ولذلك صرفوا لهم شيئًا من العبادة تقربًا إليهم، ذبحوا للقبور، ونذروا للقبور، واستغاثوا وهتفوا بالأموات.

والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨][٩].

---

[٩] لا يرضىٰ الله بمشاركة أحد كائنًا من كان، وهذا صريح في القرآن والسنة، لكن لمن يعقل ويتدبر، وينبذ التقليد الأعمىٰ، والتعلل الباطل، ويتنبه لنفسه، والدليل علىٰ أن الله لا يرضىٰ أن يُشرَك مع أحد كائنًا من كان: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

المساجد هي بيوت الله، وهي المواطن المعدة للصلاة، وهي أحب البقاع إلىٰ الله، وهي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يجب أن تكون هذه المساجد مواطنًا لعبادة الله وحدَه، لا يحدث فيها شيء لغير الله، فلا تُبنىٰ فيها القبور والأضرحة؛ لأن النبي ﷺ لعن من فعل ذلك، وأخبر أن هذا هو فعل اليهود والنصارىٰ، ونهانا عن ذلك في آخر حياته، وهو في سكرات الموت -عليه الصلاة والسلام- بقوله: «**ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد** -هذا يقوله وهو في سياق الموت- **ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[١].

ويقول ﷺ: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٢].

فالمساجد يجب أن تطهر من آثار الشرك والوثنية، وألا تقام علىٰ القبور، أو يدفن فيها الأموات بعد بنائها، بل تكون مواطن عبادة الله وحده، تقام فيها الصلاة، ويذكر فيها اسم الله، ويتلىٰ فيها القرآن، وتقام فيها الدروس النافعة، ويعتكف فيها للعبادة، هذه هي وظيفة المساجد.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جُنْدَب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما.

أما أن تُقام فيها أوثانٌ تعبد من دون الله، فهذه ليست مساجد، هذه مشاهد شرك، وإن سماها أهلها مساجد؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: لا لغيره؛ ولأن المساجد هي محل اجتماع الناس، وتلاقيهم، فيجب أن تكون طاهرة من الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس يتلقَّوْن فيها العلم والعبادة.

فإذا وجدوا في المساجد شيئًا من الشرك والخرافات تأثروا بذلك ونشروه في الأرض، فيجب أن تكون المساجد مطهرة من الشرك، وأعظمها المسجد الحرام كما أمر الله -جل وعلا- بتطهيره، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦]. طهِّره من ماذا؟ طهره من الشرك والبدع والخرافات، كما أنه أيضًا يُطهر من النجاسات والقاذورات.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾ لا: ناهية، و تدعو: فعل مضارع مجزوم بـ: لا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأن أصله تدعون، فدخل عليه الجازم، وهو لا الناهية.

فلا تدعوا أيها الناس مع الله أحدًا، لا تستغيثوا بأحد مع الله، كأن يقول: يا الله، يا محمد، يَا الله، يا عبد القادر، أو يقول: يا عبد القادر، يا محمد، أو ما أشبه ذلك، فإن الله لا يرضىٰ بذلك، ولا يقبله.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم كل أحد، لا يستثنىٰ أحد؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صنم، ولا وثن، ولا قبر، ولا شيخ، ولا ولي، ولا حي، ولا ميت، كائنًا من كان.

فهي تعم كل من دُعِي من دون الله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فدلت هذه الآية علىٰ أن العبادة لا تنفع إلا مع التوحيد، وأنها إذا خالطها الشرك فإنها تبطل، وتكون وبالًا علىٰ صاحبها.

ثم قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ يجب أن تبنىٰ بنية خالصة لا يكون القصد من بنائها الرياء، والسمعة، وتخليد الذكر كما يقولون، وتكون آثارًا إسلامية، هذا كله باطل.

المساجد تبنىٰ للعبادة، وبقصد العبادة، وتكون النية فيها خالصة لله ﷻ، وأيضًا تبنىٰ من كسب طيب، لا تبنىٰ من كسب حرام؛ لأنها لله ﷻ، و «**إن الله لا يقبل إلا طيبًا**»[1].

فتبنىٰ المساجد من نفقة حلال، وتكون نية بانيها خالصة لوجه الله ﷻ لا يريد من بنائه مدحًا من الناس، أو تخليدًا لذكره، أو رياء، أو سمعة، فإن بناء المساجد عبادة، والعبادة يجب أن تكون خالصة لله ﷻ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الولاء والبراء

الثالثة: أنَّ من أطاعَ الرسول، ووحَّدَ الله، لا يجوزُ له موالاةُ من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب [١٠].

---

[١٠] لا يجوز لمن فعل ذلك موالاة مَنْ حادَّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب.

هذه مسألة الولاء والبراء وهي تابعة للتوحيد، من حقوق التوحيد: الولاء لأولياء الله، والبراء من أعداء الله، والموالاة والولاء بمعنىٰ واحد، والولاء يراد به المحبة بالقلب، ويراد به المناصرة والمعاونة، ويراد به الإرث والعقل في الديات.

فالمسلم يوالي أولياء الله بمعنىٰ أنه يحصر محبته علىٰ أولياء الله ويناصرهم، فالمسلم يكون مع المسلمين بعضهم أولىٰ ببعض كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٧٥].

فالتعاقل في ديات الخطأ يكون بين المسلمين، وهو ما يسمىٰ بالتكافل، كل هذا يدخل في الولاء، فلا يكون الولاء بين مسلم وكافر، والمحبة والنصرة والميراث والعقل وولاية النكاح، وولاية القضاء إلىٰ غير ذلك.

فلا يكون ذلك بين مسلم وكافر، وإنما يكون هذا بين المسلمين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[النساء:١٤١].

هكذا يجب أن يتميز المؤمنون عن الكفار، فلا يجوز لمن وحَّد الله وأطاع الرسولﷺ موالاةُ من حادَّ الله.

والمحادَّة معناها: أن يكون الإنسان في جانب، والله ورسوله والمؤمنون في جانب، ويكون المحاد في جانب الكفار، هذه هي المحادة.

قوله: «ولو كان أقرب قريب» أي: نسبًا، فإذا كان قريبك محادًّا لله ورسوله؛ فيجب عليك محادَّته ومقاطعته، ومن كان وليًّا لله ورسوله وجب عليك أن تحبَّه وتواليه ولو كان بعيدًا من النسب عنك، ولو كان أعجميًّا، أو أسود أو أبيض أو أحمر، يجب عليك أن تواليه وأن تحبه، سواء كان من بلدك، أو من أقصىٰ الشرق، أو من أقصىٰ الغرب، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]. أي: بينهم المحبة والتناصر والتعاون، وبينهم الألفة؛ هذا بين المؤمنين.

والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢][١١].

---

[١١] قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ﴾ هذا خطاب للنبيﷺ، أي: لا يقع هذا، ولا يكون موجودًا أبدًا أن يكون مؤمن بالله ورسوله يحب الكفار، فإن أحبهم فإنه ليس بمؤمن ولو كان يدَّعي ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكافية الشافية:

أتُحِبُّ أعداءَ الحبيب وتدَّعي ... حبًّا له ما ذاك في إمكان

وكذا تُعادي جاهدًا أحبابه ... أينَ المحبَّةُ يا أخا الشيطان

فهذا لا يمكن أبدًا أن يحب الكفار، يقول: أنا أحب الله ورسوله لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:١-٤].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٤]. هذه ملة إبراهيم تبرأ من أبيه، أقرب الناس إليه لما تبين له أنه عدو الله.

ودلت الآية أيضًا على أن محبة الكافر تتنافى مع الإيمان بالله واليوم الآخر، إما مع أصله أو مع كماله، لكن إن كانت محبتهم معها تأييد لمذهبهم وكفرهم فهذا خروج عن الإسلام، أما إن كان مجرد محبة من غير مناصرة لهم، فهذا يعتبر منقصًا للإيمان وفسقًا، ومضعفًا للإيمان.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة بن الجراح -رضي الله تعالى عنه- لما قتل أباه يوم بدر؛ لأن أباه كان على الكفر، وكان يريد أن يقتل ابنه أبا عبيدة، فقتله أبو عبيدة رضي الله عنه لأنه عدو الله، ولم يمنعه أنه أبوه، لم يمنعه ذلك من قتله غضبًا لله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾؛ أي: الذين يبتعدون عن محبة ومودة من حادَّ الله ورسوله.

قوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾؛ أي: أثبت الله في قلوبهم، ورسخ الله في قلوبهم الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

التأييد: معناه التقوية، قواهم بروح منه، والروح لها عدة إطلاقات في القرآن، منها: الروح التي هي النفس التي بها الحياة، ومنها: الوحي كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢]. ومنها: جبريل عليه السلام أنه روح القدس، والروح الأمين.

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

....

وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣]. ومنها: ما في هذه الآية وهي القوة.

فأيدهم بروح منه، أي: بقوة منه ﷻ، قوة إيمان في الدنيا، وفي الآخرة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ جمع جنة، والجنة في اللغة: البستان، سمي جنة لأنه مجتن بالأشجار، أي: مستتر ومغطىٰ بالأشجار الملتفة، لأن الجنة ظلال وأشجار وأنهار وقصور، وأعلاها وسقفها عرش الرحمن ﷻ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: باقين فيها لا يتحولون عنها، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]. لا يخافون من موت ولا يخافون من أحد يخرجهم ويطردهم، مثل ما في الدنيا، قد يكون الإنسان في الدنيا في قصور لكن لا يسلم من الموت فيخرج منها، ولا يسلم من الأعداء يتسلطون عليه ويخرجونه، الإنسان في الدنيا دائمًا خائف.

قوله تعالىٰ: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: لما أغضبوا أقرباءهم من الكفار وعادوهم منحهم الله الرضا منه ﷻ جزاءً لهم، فهم عوِّضوا بإغضابهم لأقاربهم الكفار عوضوا برضا الله ﷻ، رضي الله عنهم، ورضوا عنه.

قوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ أي: جماعة الله، وأما الكفار فهم حزب الشيطان، كما قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة:١٩]. أي: جماعة الشيطان، وأنصار الشيطان، أما هؤلاء فهم أنصار الرب.

فهذه المسألة تتعلق بعداوة الكفار، وعدم موالاتهم، وهي لا تقتضي أننا نقاطع الكفار في الأمور والمنافع الدنيوية؛ بل يستثنىٰ من ذلك أمور:

الأول: أنه مع بغضنا لهم وعداوتنا لهم يجب أن ندعوهم إلىٰ الله ﷻ، يجب أن ندعوهم إلىٰ الله، ولا نتركهم ونقول: هؤلاء أعداء الله وأعداؤنا، يجب علينا أن ندعوهم إلىٰ الله لعل الله أن يهديهم، فإن لم يستجيبوا فإنا نقاتلهم مع القدرة، فإما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يبذلوا الجزية إن كانوا من اليهود والنصارىٰ أو المجوس وهم صاغرون، ويخضعون لحكم الإسلام، ويُتركون علىٰ ما هم عليه.

لكن بشرط دفع الجزية وخضوعهم لحكم الإسلام، أما إن كانوا غير كتابيين وغير مجوس ففي أخذ الجزية منهم خلاف بين العلماء.

الثاني: لا مانع من مهادنة الكفار عند الحاجة، إذا احتاج المسلمون لمهادنتهم؛ لكون المسلمين لا يقدرون علىٰ قتالهم، ويخشىٰ علىٰ المسلمين من شرهم، لا بأس بالمهادنة إلىٰ أن يقوىٰ المسلمون علىٰ قتالهم، أو إذا طلبوا هم المهادنة: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١]. فيهادنون؛ لكن ليس هدنة دائمة إنما هدنة مؤقتة مؤجلة إلىٰ أجل حسب رأي إمام المسلمين لما فيه من المصلحة.

الثالث: لا مانع من مكافأتهم علىٰ الإحسان إذا أحسنوا للمسلمين، لا مانع أن يكافئوا علىٰ إحسانهم، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

رابعًا: الوالد الكافر يجب علىٰ ولده المسلم أن يبرَّه، لكنه لا يطيعه في الكفر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ [لقمان:١٤-١٥]

الوالد له حق، وإن كان كافرًا؛ لكن لا تحبه المحبة القلبية؛ بل تكافئه علىٰ تربيته لك، وأنه والد وله حق تكافئه علىٰ ذلك.

خامسًا: تبادل التجارة معهم والشراء منهم، شراء الحاجات منهم، واستيراد البضائع والأسلحة منهم بالثمن لا بأس بذلك، وقد كان النبي ﷺ يتعامل مع الكفار، وكذلك عامل ﷺ أهل خيبر وهم يهود علىٰ أن يزرعوا الأرض بجزء مما يخرج منها، ليس هذا من الموالاة والمحبة، وإنما هو تبادل مصالح، يجب أن نعرف هذه الأمور، وأنها لا تدخل في الموالاة وليس منهيًّا عنها.

كذلك الاستدانة منهم، النبي ﷺ استدان من اليهودي طعامًا، ورهن درعه عنده، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بطعام اشتراه لأهله، لا مانع من هذا؛ لأن هذه أمور دنيوية ومصالح، ولا تدل علىٰ المحبة والمودة في القلوب، فلابد أن نفرق بين هذا وهذا؛ لأن بعض الناس إذا سمع نصوص العداوة للكفار وعدم محبتهم، قد يفهم أنه لا يتعامل معهم، ولا يتصل بهم نهائيًا، وأن تكون مقاطعة نهائية.

لا! هذا محدد بأحكام وبحدود وبشروط معروفة عند أهل العلم مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

سادسًا: أباح الله التزوج من نساء أهل الكتاب بشرط أن يكنَّ عفيفات في أعراضهن، وأباح الله لنا أكل ذبائحهم.

سابعًا: لا بأس بإجابة دعوتهم، وأكل طعامهم المباح كما فعل النبي ﷺ.

ثامنًا: الإحسان إلىٰ الجيران من الكفار؛ لأن لهم حق الجوار.

تاسعًا: لا يجوز ظلمهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

اعلم أرشدكَ الله لطاعته [١٢].

---

[١٢] قوله: «اعلم أرشدك الله» هذا كأنه بداية رسالة ثالثة؛ لأنه مضىٰ رسالتان الرسالة الأولىٰ: المسائل الأربع التي تضمنتها سورة العصر.

والرسالة الثانية: المسائل الثلاث التي سبقت.

والرسالة الثالثة: هي هذه، وستأتي الرسالة الرابعة، وهي ثلاثة الأصول.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم»: تقدم الكلام علىٰ لفظها، وبيان معناها، والمقصود من الإتيان بها.

قوله: «أرشدك الله»: هذا دعاء من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكل من يقرأ هذه الرسالة متفهمًا لها يطلب العمل بها بأن يرشده الله، والإرشاد: هو الهداية إلىٰ الصواب والتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح.

والرشد ضد الغي؛ قال تعالىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف:١٤٦]. والرشد: هو دين الإسلام، والغي: دين أبي جهل وأمثاله.

قوله: «أرشدك الله لطاعته»: هذا دعاء عظيم، فإن المسلم إذا أرشده الله لطاعته، فقد سعد في الدنيا والآخرة.

والطاعة هي: امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهىٰ الله عنه، هذه هي الطاعة، أن تطيع الله في أوامره فتفعلها، وفي نواهيه فتجتنبها امتثالًا لأمر الله، وابتغاء وجه الله جَلَّ ترجو ثوابه، وتخاف عقابه، فمن وُفِّق لطاعة الله، وأُرشد لطاعة الله، فإنه يسعد في الدنيا والآخرة.

الرسالة الثالثة: الحنيفية ملة إبراهيم

تعريف الحنيفية:

إن الحنيفيَّة ملةُ إبراهيم [١٣].

---

[١٣] قوله: «إن الحنيفية ملة إبراهيم»، أي: الذي يجب أن تعلمه وأن تعرفه أن الحنيفية ملة إبراهيم.

والحنَفُ في اللغة: الميل.

فمعنىٰ الحنيفية: هي الملة المائلة عن الشرك إلىٰ التوحيد، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان حنيفًا مسلمًا، حنيفًا، أي: مائلًا عن الشرك ومعرضًا عنه إلىٰ التوحيد والإخلاص لله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل: ١٢٠].

فالحنيف من أوصاف إبراهيم عليه السلام بمعنىٰ: أنه معرض عن الشرك، ومائل عنه بالكلية إلىٰ التوحيد، متوجه بكل وجهته إلىٰ التوحيد والإخلاص لله ﷻ، قال الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[النحل: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[آل عمران: ٦٧].

....

هذه أوصاف إبراهيم عليه السلام العظيمة، منها: أنه كان حنيفًا، وأن ملته الحنيفية، وهي الملة الخالصة لله عز وجل التي ليس فيها شرك، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يتبع هذه الملة بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

وأُمرنا نحن كذلك أن نتبع ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج:٧٨]. وهي دين جميع الرسل.

ولكن لكون إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أفضل الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ لاقىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ التوحيد من التعذيب ومن الامتحان ما لم يلقه غيره، فصبر علىٰ ذلك.

ولكونه أبا الأنبياء، فإن الأنبياء الذين جاءوا من بعده كلهم من ذريته -عليه الصلاة والسلام-، فالحنيفية ملة جميع الأنبياء، وهي الدعوة إلىٰ التوحيد، والنهي عن الشرك، هذه ملة جميع الرسل، لكن لما كان لإبراهيم مواقف خاصة نحو هذه الملة نسبت إليه، ولمن جاء بعده.

والأنبياء كلهم من بعده كانوا علىٰ ملة إبراهيم، وهي ملة التوحيد والإخلاص لله عز وجل.

ما هي هذه الملة التي أُمر نبيُّنا ﷺ باتباعها، وأُمرنا باتباعه؟ يجب علينا أن نعرفها؛ لأن المسلم يجب عليه أن يعرف ما أوجب الله عليه من أجل أن يمتثله، ومن أجل ألاَّ يخل به؛ لا يكفي الانتساب بدون معرفة، لا يكفي أن ينتسب للإسلام، وهو

أن تعبدَ الله وحده مخلصًا له الدين [١٤].

لا يعرفه، ولا يعرف ما هي نواقض الإسلام، وما هي شرائع الإسلام، وأحكام الإسلام، ولا يكفي الانتساب لملة إبراهيم وأنت لا تعرفها، وإذا سئلت عنها تقول: لا أدري، هذا لا يجوز، يجب أن تعرفها جيدًا من أجل أن تسير عليها علىٰ بصيرة، وألا تخل بشيء منها.

[١٤] قوله: «أن تعبد الله وحدَه مخلصًا له الدين»: هذه ملة إبراهيم، أن تعبد الله مخلصًا له الدين، تجمع بين الأمرين: العبادة والإخلاص، فمن عَبَدَ الله ولم يخلص له الدين، لم تكن عبادته شيئًا، فمن عبد الله، فصام وحج وصلَّىٰ واعتمر وتصدق وزكىٰ وفعل كثيرًا من الطاعات؛ لكنه لم يخلص لله ﷻ في ذلك، إما لأنه فعل كل ذلك رياء أو سمعة، أو أنه خلط عمله بشيء من الشرك كدعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله، والذبح لغير الله، فإن هذا لم يكن مخلصًا في عبادته؛ بل هو مشرك، وليس علىٰ ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

كثير ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام اليوم يقعون في الشرك الأكبر من دعاء غير الله، وعبادة القبور والأضرحة والذبح لها والنذر لها، والطوائف بها والتبرك بها، والاستغاثة بالأموات وغير ذلك، وهم يقولون: إنهم مسلمون، هؤلاء لم يعرفوا ملَّة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- التي عليها نبيُّهم محمدﷺ، لم يعرفوها، أو عرفوها وخالفوها علىٰ بصيرة -والعياذ بالله- وهذا أشد.

فملَّة إبراهيم لا تقبل الشرك بأي وجه من الوجوه، ومَنْ خلط عمله بشرك فليس علىٰ ملَّة إبراهيم، وإن كان ينتسب إليها، ويزعم أنه مسلم، فالواجب أن تعرف ملة إبراهيم، وأن تعمل بها، وأن تلتزمها بأن تعبد الله مخلصًا له الدين، لا يكون

وبذلك أمرَ الله جميع الناس، وخلقهم لها [١٥].

في عبادتك شيء من الشرك الأصغر أو الأكبر.

هذه ملَّة إبراهيم عليه السلام: الحنيفية التي أعرضت عن الشرك بالكلية، وأقبلت علىٰ التوحيد بكليتها، أن تعبد الله مخلصًا له الدين.

[١٥] قوله: «وبذلك أمر الله» الإشارة ترجع إلىٰ قوله: أن تعبد الله مخلصًا له الدين، أي: وبعبادة الله مخلصًا له الدين أمر الله جميع الخلق، أمر الله جميع الناس عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، كلَّ الناس من عهد آدم إلىٰ آخر بشر في الدنيا، كلهم أمرهم الله بعبادته مع الإخلاص في العبادة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

أنه لا ندَّ له، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا كفؤ له، فهذا نهي عن الشرك الأكبر، وعن الشرك الأصغر، أمر الله بذلك جميع الناس من أولهم إلىٰ آخرهم.

قوله: «وخلقهم لها»، أي: لعبادته وحدَه لا شريك له سبحانه، خُلقوا من أجلها، ذلك كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأُمروا بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١].

هذا معنىٰ قول الشيخ: خلقهم لها وأمرهم بها، جمع الأمرين في قوله: «وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها»، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ

وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ الله هو الخالق، هو الذي خلق الأشياء كلها، ومن ذلك أنه خلق الجن والإنس، وأعطاهم العقول، وكلَّفهم بعبادته وحدَه لا شريك له، خصَّهم بالأمر بعبادته؛ لأن الله أعطاهم عقولًا وأعطاهم ما يميزون به بين الضار والنافع، والحق والباطل، وخلق الأشياء كلَّها لمصالحهم ومنافعهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية:١٣] . كل مسخر لبني آدم من أجل أن يستعينوا به علىٰ ما خُلقوا من أجله، وهو عبادة الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والجن عالم من عالم الغيب لا نراهم، وهم مكلفون بالعبادة، ومنهيون عن الشرك وعن المعصية مثل بني آدم، لكن يختلفون عن بني آدم في الخلقة.

أما من ناحية الأوامر والنواهي فهم مثل بني آدم مأمورون ومنهيون، والجن عالم من عالم الغيب لا نراهم لكنهم موجودون.

والإنس هم بنو آدم، سموا بالإنس؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، يجتمعون ويتآلفون، والجن سموا جنًّا من الاجتنان: وهو الاختفاء، ومنه الجنين في البطن؛ لأنه مختفٍ، وجَنَّهُ الليل إذا سَتَرَهُ، والمِجَنُّ: ما يتخذ للوقاية به في الحرب من السهام وغيرها، فهو يستر حامله، فالاجتنان والجَنَان: هو الشيء الخفي المستتر، فالجن مستترون عنا لا نراهم.

وَهُمْ عالم موجود من أنكرهم فهو كافر؛ لأنه مكذِّب لله ورسوله، ولإجماع المسلمين، فقد بيَّن الله ﷻ أنه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته لا لشيء آخر.

فهو لم يخلقهم لأجل أن ينفعوه أو يضروه، أو يعتز بهم من ذلة، أو يتكثر بهم من قلة؛ لأنه غني عن العالمين، وما خلقهم لحاجة إليهم، ما خلقهم لأجل أن يرزقوه أو يكتسبوا له الأموال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٧-٥٨].

فالله ليس بحاجة إلىٰ الخلق، وإنما خلق الجن والإنس لشيء واحد فقط، وهو أن يعبدوه، وهو ليس بحاجة إلىٰ عبادتهم وإنما هم المحتاجون إليها؛ لأنهم إذا عبدوا الله أكرمهم وأدخلهم الجنة، فمصلحة العبادة راجعة إليهم، ومضرة المعصية عائدة إليهم، أما الله -جل وعلا- لا تضره طاعة المطيع، ولا معصية العاصي، قال ﷻ: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. الله لا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة المطيع، وإنما هذا راجع إلىٰ الخلق أنفسهم، إن أطاعوه انتفعوا، وإن عصوه تضرروا بمعصيته.

ومعنىٰ يَعبُدون: يوحدون [١٦].

أعظم ما أمر الله به التوحيد

وأعظَمُ ما أَمَرَ الله به التوحيد، وهو إفرادُ الله بالعبادة [١٧].

---

[١٦] قوله: «ومعنىٰ يعبدون: يوحدون»: أي: يفردوني بالعبادة، فالعبادة والتوحيد بمعنىٰ واحد؛ التوحيد يُفَسَّر بالعبادة، والعبادة تُفَسَّر بالتوحيد ومعناهما واحد، ففي هذا ردٌّ علىٰ من فسَّر التوحيد بأنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، فهذا ليس هو التوحيد الذي خُلِق الخلق من أجله، وإنما خلِقَ الخَلْق من أجل توحيد العبادة، وهو توحيد الألوهية.

أما من أقر بتوحيد الربوبية فقط، فإنه ليس موحِّدًا، وليس من أهل الجنة؛ بل هو من أهل النار؛ لأنه لم يأت بالتوحيد الذي خُلق من أجله و«هو» العبادة.

[١٧] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعظم ما أمر الله به التوحيد»: هذا مهم جدًّا، إن التوحيد أعظم ما أمر الله به، كل الأوامر التي أمر الله بها كلُّها بعد التوحيد.

الدليل علىٰ أن أعظم ما أمر الله به التوحيدُ قولهُ تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ ﴾ [النساء:٣٦] إلىٰ آخر الآية.

هذه الآية فيها عشرة حقوق؛ ولهذا تسمىٰ آية الحقوق العشرة، أول هذه الحقوق حق الله سبحانه: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ ﴾، ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ هذا هو الحق الثاني، ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ هذا هو الحق الثالث.

وذوو القربىٰ: هم الذين تجمعك بهم قرابة نسبية من جهة الأب أو الأم، كالآباء والأجداد، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات،

وأولاد الإخوة والأخوات، وأولاد الأعمام والعمات، هؤلاء هم ذوو القربىٰ، لهم حق القرابة.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الأيتام من المسلمين، وهم كل من مات أبوه، وهو صغير ولم يبلغ، وصار بحاجة إلىٰ من يسد مَسَدَّ أبيه في رعاية هذا الطفل تربية وإنفاقًا وقيامًا بمصالحه، ورفع ما يضره؛ لأنه ليس له أب يحميه، وينفق عليه، ويدافع عنه، فهو بحاجة إلىٰ من يساعده؛ لأنه فقد أباه وعائله، وله حق في الإسلام.

المهم أن الله بدأها بحقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لم يقتصر علىٰ قوله: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لأن العبادة لا تصح مع الشرك ولا تنفع، ولا تسمىٰ عبادة إلا إذا كانت خالصة لله عَزَّ وَجَلَّ ، إن كان معها شرك فإنها لا تكون عبادة مهما أتعب الإنسان نفسه فيها، قرن الأمر بالعبادة بالنهي عن الشرك، إذ لا تصح العبادة مع وجود الشرك أبدًا.

هذا دليل علىٰ قول الشيخ: «أعظم ما أمر الله به التوحيد». حيث إن الله بدأ في آيات كثيرة منها هذه الآية.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]. فبدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتوحيد، وهذا يدلُّ علىٰ أنه أعظم ما أمر الله به.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾ [الأنعام:١٥١].

هذا دليل علىٰ ما يأتي أن أعظم ما نهىٰ الله عنه الشرك، فإذا كان أعظم ما أمر الله به التوحيد، فإنه يجب أن يبدأ الإنسان بتعلُّم العقيدة قبل كل شيء، العقيدة هي

....

الأساس، فيجب أن يبدأ بها بالتعلُّم والتعليم، وأن يداوم علىٰ تدريسها وبيانها للناس؛ لأنها هي أعظم ما أمر الله به، فليس من المناسب أن تجعلها آخر الأشياء أو لا يؤبه بها؛ لأن الآن هناك دعاة يزهدون في تعليم التوحيد والعقيدة، هناك أناس ابتلوا بهذا؛ ولأن الإخلال بها إخلال بالدين كله فيجب العناية بها.

وما هو التوحيد؟ هل هو أن تقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت؟ لا.

التوحيد هو: إفراد الله بالعبادة؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقال أهل التفسير: يعبدون، أي: يوحدون، ففسروا التوحيد بالعبادة.

إذن؛ فالتوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وليس هو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر؛ لأن هذا موجود في الفِطَرِ، موجود في عقول العقلاء، لا يوجد عاقل في الدنيا يعتقد أن أحدًا خلق السموات والأرض غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يوجد أحد في العالم كله وما فيه من الكفار والملاحدة يعتقد أن أحدًا من البشر خلق بشرًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

لا يوجد عاقل في العالم يعتقد أن بشرًا يخلق بشرًا إنسانًا يمشي علىٰ الأرض، ويتكلم ويأكل ويشرب، هل يوجد عاقل يعتقد هذا؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

توحيد الربوبية موجود في الفطر والعقول؛ لكنه لا يكفي بدون توحيد العبادة، وهو إفراد الله بالعبادة.

أعظم ما نهى الله عنه الشرك

وأعظمُ ما نهىٰ عنه الشِّركُ [١٨].

ولهذا قال الشيخ: التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وليس هو إفراد الله بالخلق والرزق والإحياء والإماتة؛ لأن هذا شيء معروف، ولا يكفي توحيد الربوبية في تعريف التوحيد.

[١٨] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأعظم ما نهىٰ الله عنه الشرك».

هذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يعتقدون أن هناك أشياء هي أعظم الجرائم، وأعظم ما نهىٰ الله عنه، فيقول: الربا هو أعظم المحرمات، الزنَا هو أعظم المحرمات؛ ولذلك يركزون علىٰ النهي عن الربا، وعن الزنا، وعن فساد الأخلاق، ولكن لا يهتمون بأمر الشِّرك، ولا يحذرون منه، وهم يرون الناس واقعين فيه، هذا من الجهل العظيم بشريعة الله تَعَالَىٰ.

فأعظم ما نهىٰ الله عنه هو الشرك، فهو أعظم من الربا، وأعظم من شرب الخمر، وأعظم من السرقة، وأعظم من أكل أموال الناس بالباطل، وأعظم من القمار والميسر، هو أعظم المحرمات.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًۭٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًۭا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍۢ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ

....

وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلىٰ آخر الآيات، وهذه الآيات تسمىٰ بالوصايا العشر: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٢].

هذه المحرمات بدأها الله بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فدلَّ علىٰ أن الشرك هو أعظم ما نهىٰ الله عنه.

وفي سورة الإسراء، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء:٢٢]. بدأ بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩].

فدل علىٰ أنه أعظم ما نهىٰ الله عنه، هذا يدل علىٰ قول الشيخ: وأعظم ما نهىٰ الله عنه الشرك.

وفي الحديث الصحيح: «أن النبي ﷺ سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: **أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**. قيل: ثم أي؟ قال: **أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**. قيل: ثم أي؟ قال: **أن تزاني حليلة جارك**»[1].

وأنزل الله تصديق ذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فبدأ بالشرك في قوله: «**أن تجعل لله ندًّا** -أي: شريكًا- **وهو خلقك**». وقال: هو أعظم الذنوب؛ لأنه سئل أي الذنب أعظم؟ فبدأ بالشرك.

وقالﷺ : «**اجتنبوا السبع الموبقات**. قيل: وما هن يا رسول الله؟! قال: **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق...**»[1] إلخ الحديث.

بدأها بالشرك؛ فدلَّ علىٰ أن الشرك هو أعظم الذنوب، ولذلك فإن المشرك لا يدخل الجنة أبدًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢] . المشرك لا يغفر الله له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾[النساء:٤٨] .

فدل ذلك علىٰ تحريم الجنة علىٰ المشرك، وأن الله لا يغفر له، ودل هذا علىٰ أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الذنوب -ما عدا الشرك- قابلة للمغفرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ فالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والربا كله داخل تحت المشيئة، إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذبه.

أما الشرك فإنه لا يغفر، حكم الله أنه لا يغفره، وكذا العاصي، وإن كان عنده كبائر دون الشرك فإنه لا تحرم عليه الجنة، مآله إلىٰ الجنة، إما أن يغفر الله له من أول وهلة ويدخله الجنة، وإما أن يخرج من النار بعد تعذيبه، ويدخل الجنة؛ المؤمن مهما كان منه من الفسق والمعاصي التي دون الشرك، فإنه لا يقنط من رحمة الله، ولا يحرم من الجنة، وهو داخل تحت المغفرة بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أما المشرك فإنه محروم من ذلك كله، والعياذ بالله، فدل على أن الشرك هو أعظم الذنوب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[لقمان:١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨]. ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦]. كل هذا يدل على أن الشرك أعظم الذنوب، وإذا كان الشرك أعظم الذنوب فإنه يجب على العلماء والمتعلمين النهي عنه والتحذير منه، وألا يسكتوا عن التحذير من الشرك، وأنه يجب جهاد المشركين مع القدرة كما جاهدهم رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾[التوبة:٥]. فيجب التحذير من الشرك، وبيانه للناس حتى يجتنبوه، هذا الذي يجب.

أما أن يسكت عن الشرك، ويترك الناس يهيمون في عبادة غير الله، وهم يدَّعون الإسلام، ولا أحد ينهى، ولا أحد يحذر، فالأمر خطير جدًّا، هناك ناس يتجهون إلى النهي عن الربا، والزنا، وفساد الأخلاق، هذه أمور محرمة، وفيها فساد، لكن الشرك أعظم، فلماذا لا يهتم بالنهي عن الشرك، والتحذير من الشرك، وبيان ما يقع فيه كثير من الناس في الشرك الأكبر وهم يدَّعون الإسلام؟!

لماذا هذا التساهل في أمر الشرك والتغافل عنه، وترك الناس يقعون فيه، والعلماء موجودون؛ بل يعيشون مع هؤلاء ويسكتون عنهم؟

الواجب: أن يتجه أولًا إلى النهي عن هذا الخطر العظيم الذي فتك بالأمة فتكًا ذريعًا، كل ذنب دونه فهو أهون منه، والواجب أن يبدأ بالأهم فالأهم.

وهو دعوة غيره معه [١٩].

---

[١٩] هذا تعريف الشرك: هو دعوة غيره معه، بمعنىٰ أن يُصْرَف شيء من العبادة لغير الله، من مَلَك من الملائكة أو نبي من الأنبياء، أو صالح من الصالحين أو بَنِيَّة من البنيَّات، أو غير ذلك من كل المخلوقات، فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهذا هو أعظم ما نهىٰ الله عنه، هذا هو الشرك.

فاعرفوا تفسير التوحيد وتفسير الشرك؛ لأن هناك من الناس من يفسر التوحيد بغير تفسيره، ومن يفسر الشرك بغير تفسيره.

من الناس من يقولون: إن الشرك هو الشرك في الحاكمية، وهذا ظهر الآن مع الأسف، الحكم بغير ما أنزل الله نوع من أنواع الشرك يسمىٰ شرك الطاعة، لا شك أن طاعة المخلوق في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله هذا نوع من الشرك؛ لكن هناك ما هو أعظم منه، وهو عبادة غير الله بالذبح والنذر والطواف والاستغاثة.

فالواجب: أن يحذر من الشرك كله، لا يؤخذ منه، ويترك ما هو أعظم وأخطر منه، فلا يفسر الشرك بأنه شرك الحاكمية فقط، أو الشرك السياسي، ويقولون: الشرك بالقبور هذا شرك ساذج -أي: هين- هذه جراءة علىٰ الله ﷻ، الشرك أعظم ما نهىٰ الله عنه، وهو دعوة غيره معه، هذا هو الشرك.

ومنهم من يقول: الشرك هو محبة الدنيا، ومحبة المال، المال جعله الله محبوبًا حبًّا طبيعيًّا ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]. ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]. ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ [التوبة:٢٤].

....

قال: أحب إليكم، ما أنكر عليهم أنهم يحبونه، لكن أنكر عليهم أنهم يقدِّمون محبته علىٰ محبة الله، محبة المال ليست شركًا؛ لأن هذه محبة طبيعية، الناس يحتاجون إلىٰ المال ويحبونه؛ محبة المال ليست شركًا؛ لأنه من محبة المنافع التي ينتفع بها الإنسان، لكن هؤلاء الذين يقولون هذه المقالات إما أنهم جهال لم يتعلموا التوحيد والشرك. وإما أنهم مُعرضون يريدون صرف الناس عن هذه الحقائق إلىٰ أشياء هم يريدونها؛ ومآرب يريدونها، والله أعلم بالمقاصد.

المهم: أن هذا ليس هو الشرك، الشرك هو دعوة غير الله معه، أو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، كالذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، والالتجاء، والخوف، والرجاء وغير ذلك، هذا هو الشرك الذي هو أعظم الذنوب دعوة غيره معه تعالى؛ لأن الدعاء هو أعظم أنواع العبادة كما قال سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد:١٤]. وقال: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[غافر:١٤]. فدعاء غير الله هو الشرك الذي حرمه الله ورسوله.

أما هذه الجزئيات التي يجعلونها هي الشرك فليس كذلك، لكن يقال: إن بعضها جزء من الشرك، وإن هناك ما هو أخطر منه، وأهم منه؛ لأن الشرك يتفاوت، بعضه أشد من بعض، والعياذ بالله.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦][٢٠].

---

[٢٠] قوله: «والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾».

قلنا: إن الدليل علىٰ أن أعظم ما أمر الله به هو التوحيد قوله: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ثم ذكر بقية الحقوق، فكونه بدأ بالتوحيد والنهي عن الشرك، هذا دليل علىٰ أن التوحيد هو أعظم ما أمر الله به؛ لأنه قال: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وأتبعه بقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ فهذا نهي، فبدأ بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فدل علىٰ أن أعظم ما أمر الله به التوحيد، وأعظم ما نهىٰ عنه الشرك، لأن الله بدأ بذلك، ولا يبدأ سبحانه إلا بالأهم فالأهم، هذا وجه الدلالة من الآية.

الرسالة الرابعة
الأصول الثلاثة التي تجب معرفتها

الأصل الأول: معرفة الله ﷻ:

فإذا قيلَ لك: ما هي الأصولُ الثلاثة التي تجبُ معرفتها؟

فقل: معرفة العبدِ ربه، ودينه، ونبيه محمداً ﷺ [١].

---

[١] قوله: «الأصول»: جمع أصل، والأصل: ما يُبنىٰ عليه غيره، والفرع: ما يبنىٰ علىٰ غيره، فهذه سُميت بالأصول؛ لأنها يُبنَىٰ عليها غيرُها من أمر الدين؛ فلذلك سميت أصولًا لأنها يبنىٰ عليها أمر الدين، وكل الدين يدور علىٰ هذه الأصول الثلاثة.

قوله: «معرفة العبد ربَّهُ»: ربه منصوب؛ لأنه مفعول لمعرفة؛ لأن المصدر (معرفة) أضيف إلىٰ اسم الفاعل (العبد) والمصدر إذا أُضيف يعمل عمل فعله عند النحويين، فالمصدر هنا أضيف فيعمل عمل الفعل.

قوله: «ودينه ونبيه»: معطوف عليه، أي: علىٰ المنصوب، هذه أصول الدين إجمالًا، وسيأتي تفصيلها في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن شاء الله.

لماذا خص هذه الأصول الثلاثة؟

لأنها هي الأساسات لدين الإسلام؛ ولأنها هي المسائل التي يُسأل عنها العبد

حين يوضع في قبره؛ لأن العبد إذا وضع في قبره وسُوِّي عليه التراب، وانصرف عنه الناس راجعين إلىٰ أهلهم، جاءه ملكان في القبر، فتعاد روحه في جسده ويحيا حياة برزخية ليست حياة مثل حياة الدنيا، حياة الله أعلم بها، فيجلسانه في قبره فيقولان له: من ربك، وما دينُك، ومَنْ نبيك؟

فالمؤمن يقول: ربي الله، وديني الإسلام، ومحمدﷺ نبيي، فيقال له: كيف عرفت؟ يقول: قرأت كتاب الله فدريت وعرفت، فينادي منادٍ: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا من الجنة، ويُوسَّع له في قبره مدَّ البصر، فيأتيه من ريح الجنة وروحها، فينظر إلىٰ مسكنه في الجنة، فيقول: يا ربِّ أقم الساعة؛ حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي!

وأما المرتاب الذي عاش علىٰ الريبة والشك، وعدم اليقين، وإن كان يدَّعي الإسلام، إذا كان عنده شكوك وعنده ريب في دين الله كالمنافق فإنه يتلجلج، فإذا قالوا له: مَنْ ربُّك؟ يقول: لا أدري، وإذا قالوا: ما دينُك؟ يقول: لا أدري، وإذا قيل: مَنْ نبيك؟ يقول: لا أدري، هاه هاه لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته[1].

يعني: أنه في الدنيا يقول ما يقوله الناس من غير إيمان -والعياذ بالله- هذا المنافق الذي أظهر الإسلام، وهو لا يعتقده في قلبه، وإنما أظهره من أجل مصالحه الدنيوية، فيقول في الدنيا: ربي الله، وهو غير مؤمن بها، قلبه منكر والعياذ بالله!!

يقول: ديني الإسلام، وهو لا يؤمن بالإسلام، قلبه منكر!!

يقول: نبيي محمدﷺ، وهو لا يؤمن برسالة محمد في قلبه!!

---

(١) سبق تخريجه (ص١٤).

....

إنما يقول بلسانه فقط، هذا هو المنافق، فيُقال له: لا دريت ولا تَلَيْتَ، فيضرب بمرزبة من حديد يصيح منها صيحة لو سمعه الثقلان لصعقوا ، يسمعها كل شيء إلا الإنسان لو سمعه لصعق، أي: لمات من الهول، ويُضيق عليه في قبره حتىٰ تختلف أضلاعه، ويُفتح له باب إلىٰ النار فيأتيه من سَمُومها وحرِّهَا، فيقول: يا رب لا تقمِ الساعة، هذه عيشته وحالته في القبر، -والعياذ بالله- لأنه ما أجاب بالجواب السديد.

ولذلك ينادي مناد: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا من النار، والعياذ بالله.

فإذا كانت هذه المسائل بهذه الأهمية وجب علينا أن نتعلَّمها وأن نعتقدها، ولا يكفي التعلُّم فقط؛ بل نتعلَّمها ونعتقدها، ونؤمن بها، ونعمل بها ما دمنا علىٰ قيد الحياة؛ لعل الله أن يثبتنا عند السؤال في القبر.

يقول الله تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فهذه الأصول الثلاثة لها أهمية عظيمة، ولهذا ركَّزَ عليها الشيخ في هذه الرسالة ووضحها من أجل أن ندرسها، ونتمعَّن فيها، ونعتقدها ونعمل بها، لعل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

فإذا قيل لك: مَنْ ربك؟

فقل: ربِّي الله الذي ربَّاني وربَّىٰ جميع العالمين بنعمه [٢].

---

[٢] لما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأصول الثلاثة مجملة أراد أن يبينها مفصلة واحدًا واحدًا بأدلتها من الكتاب والسنة، ومن آيات الله في الكون، ومن الأدلة العقلية، وهكذا يجب أن تبنىٰ العقائد علىٰ أدلة الكتاب والسنة، وعلىٰ النظر في آيات الله الكونية من أجل أن ترسخ وتثبت في القلب وتزول جميع الشبه.

وأما العقائد المبنية علىٰ الشُّبهات، وعلىٰ الشكوك، وعلىٰ أقوال الناس والتقليد الأعمىٰ، فإنها عقائد زائلة لا تثبت، وهي عُرضة للنقض وعُرضة للإبطال.

فلا تثبت العقيدة، ولا سائر الأحكام الشرعية إلا بأدلة الكتاب والسنة، وبالأدلة العقلية المسلَّمة، ولهذا أكثر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سياق الأدلة علىٰ هذه الأصول الثلاثة، فلا يمر أصل منها إلا وقد دعمه بالأدلة والبراهين اليقينية التي تطرد الشكوك والأهواء، وترسخ العقيدة في القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا قيل لك». أي: سُئلت «مَنْ ربك؟» وهذا سؤال وارد ستُسأل عنه في الدنيا والآخرة، فلابد أن تعرف ربك عَزَّ وَجَلَّ، وأن تجيب بجواب صحيح مبني علىٰ اليقين والبرهان.

فقل: ربي الله -هذا هو الجواب-، الذي رباني وربَّي جميع العالمين بنعمه؛ هذا استدلال عقلي.

فالربُّ -جل وعلا- هو الذي يربي جميع عباده بنعمه، ويغذيهم برزقه، يخلقهم -بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا- في بطون أمهاتهم خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ويوصل إليهم الرزق حتىٰ في بطون أمهاتهم؛ ولذلك ينمو جسم

....

الجنين في بطن أمه ويكبر؛ لأنه يصل إليه الرزق من الله ﷻ، ويصل إليه الغذاء.

ثم تُنفخ فيه الرُّوح، فيتحرك ويحيا -بإذن الله- هذه تربية في البطن، ثم إذا خرج فإن الله سبحانه يربيه بنعمه بالصحة والعافية، ويدرُّ عليه لبن أمِّه، فيتغذَّىٰ إلىٰ أن يأكل الطعام ويستغني عن الحليب، ثم ينمو شيئًا فشيئًا عقله وسمعه وبصره، ينمو شيئًا فشيئًا حتىٰ يبلغ الحُلُم، ثم ينمو وينمو حتىٰ يبلغ أشدَّه ويبلغ أربعين سنة، ويكون في غاية القوة.

فمن الذي يغذيه من يوم أن خلقه في بطن أمه إلىٰ أن يموت، من الذي يغذيه ثم من الذي يسوغ هذا الطعام، وهذا الشراب في جسمه فيصل إلىٰ كل خلية وعضلة وإلىٰ كل مكان في جسمه، من الذي يشهي إليه الطعام والشراب، من الذي يصرفه ويخرج منه ضرره، من الذي يفعل هذا ويربي هذا الإنسان، أليس هو الله ﷻ؟ هذا هو الربُّ ﷻ الذي يربي، هو الذي رباني وربىٰ جميع العالمين بنعمته.

كل ما علىٰ وجه الأرض من العوالم الآدمية والحيوانية، وعالم البر والبحر، من أكبر مخلوق إلىٰ أصغر مخلوق، في البر والبحر كلها تتغذىٰ بنعمه ورزقه، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك:٢١]. وقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦]. وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]. هذا هو الرب سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس:٣].

أما غير الله -جل وعلا- فلا يملك من ذلك شيئًا لا الأصنام ولا غيرها، لا أحد يملك من الرزق شيئًا؛ وإنما هو مرزوق مخلوق مثلك.

وهو معبودي ليسَ لي معبودٌ سواه [٣].

---

[٣] قوله: «وهو معبودي»: الربُّ الذي هذا شأنه هو الذي يستحق العبادة مني ومن غيري، ثم أيضًا نبَّه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يكفي الإقرار بالربوبية، لا يكفي أن تقول: ربي الله الذي رباني بنعمه.

هذا لا يكفي لابد أن تعترف له بالعبودية، وأن تُخلص له بالعبادة، وهذا هو الفرق ما بين الموحِّد والمشرك، فالموحِّد يقرُّ بربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ وبعبوديته وحدهَ لا شريك له، والمشرك يقرُّ بربوبية الله، ولكنه مشرك في عبادته، يُشرِك معه غيرَه في عبادته، يشرك معه مَنْ لا يخلق، ولا يرزق، ولا يملك شيئًا.

هذا هو الفرق ما بين الموحد والمشرك؛ الموحد يقول: ربي الله، وهو معبودي، وليس لي معبود سواه.

أما المشرك فيقول: ربي الله؛ لكن العبادة عنده ليست خاصَّة بالله، فيعبد مع الله الأشجار والأحجار، والأولياء والصالحين، والقبور، فلذلك صار مشركًا ولم ينفعه الإقرار بالربوبية، ولم يدخله في الإسلام.

فقوله: **«وهو معبودي»**، أي: الإله الذي أعبده.

وقوله: «ليس لي معبود سواه»: لا من الملائكة، ولا من الرسل، ولا من الصالحين، ولا من الأشجار، والأحجار، ولا من أي شيء، ليس لي معبود سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا تقرير التوحيد بالدليل، وهذا دليل عقلي، ثم ذكر الدليل النقلي من القرآن.

والدليل قولهُ تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:٢].

هذه الآية هي أول القرآن في المصحف، ليس قبلها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، وهي آخر كلام أهل الجنة، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

....

ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠]. والله -جل وعلا- افتتح بها الخلق، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

وختم بها الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]. فتح بها الخلق، وختم بها فهي كلمة عظيمة.

فقوله تعالىٰ: الحمد: الثناء علىٰ المحمود مع محبته وإجلاله، و«أل» في الحمد للاستغراق، أي: جميع المحامد لله ملكًا واستحقاقًا، فهو المستحق للحمد المطلق، وأما غيره فيحمد علىٰ قدر ما يفعل من الجميل، ومن الخير، وأما الحمد المطلق الكامل فهو لله ﷻ؛ لأن النعم كلها منه.

وحتىٰ المخلوق إذا أسدىٰ إليك شيئًا من الإحسان فإنه من الله ﷻ، هو الذي سخر لك هذا المخلوق، وهو الذي مكّنه من أن يحسن إليك، فالحمد يرجع إلىٰ الله سبحانه وتعالى.

وقوله: لله: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، أي: الحمد كائن، أو مستقر لله ﷻ.

والله: معناه: ذو الألوهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين، وهذا الاسم لا يسمىٰ به غيره سبحانه، لا أحد تسمىٰ بالله، حتىٰ فرعون، ما قال: أنا الله، لكنه قال: أنا ربكم، فهذا الاسم خاص بالله، لا أحد يتسمىٰ به أبدًا، ولا أحد يجرؤ أن يقول: أنا الله.

رب: نعت لاسم الجلالة وهو مجرور وهو مضاف.

العالمين: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

فواضح أن الحمد كله والثناء كله لله رب العالمين.

وعالم الملائكة وعالم الجمادات والطيور، وعالم السباع، وعالم الحيوانات، وعالم الحشرات والذر، عوالم في البر والبحر لا يعلمها إلا الله، ولا يحصيها إلا الله، كلها الله ربها.

رب العالمين: وهذا لا يطلق إلىٰ علىٰ الله -سبحانه عز وجل-، لا يمكن لأحد أن يقال له: رب العالمين.

فإذا قيل: الرب، فهذا لا يطلق إلا علىٰ الله، علىٰ الله -جل وعلا-، ولا ينصرف إلا إليه، أما المخلوق فيقيد فيقال: ربُّ الدار، ربُّ البهيمة، أي: مالكها وصاحبها.



وكلُّ ما سوىٰ الله عالَم، وأنا واحدٌ من ذلك العالَم [٤].

فإذا قيلَ لك: بما عرفتَ ربَّكَ؟

فقل: بآياته، ومخلوقاته [٥].

---

[٤] ثم بين الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وجه الاستدلال بهذه الآية.

فقوله: «وكل ما سوىٰ الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم» فيكون الله ربِّي؛ لأن الله ربُّ العالمين، وأنا واحد من العالمين، فلا أحد يستطيع أن يقول: أنا لي رب غير رب العالمين، لا الكافر ولا المسلم، هذا لا يمكن أبدًا، ولا يقوله عاقل، هذا دليل علىٰ ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ ، وما دام أنه رب العالمين فهو المستحق للعبادة، وهذا يُبطل عبادةَ غيره تَعَالَىٰ، ولذلك قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وهذا يفيد الحصر؛ لأن تقديم المعمول -إياك- وتأخير العامل -نعبد- يدل علىٰ الحصر، فإياك نعبد يختلف عن نعبدك، لأن نعبد، هذا إثبات فقط، لكن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتضمن النفي والإثبات، أي: لا نعبد غيرك، والعبادة لا تصح إلا مع النفي والإثبات، وهو معنىٰ لا إله إلا الله، فيها نفي وإثبات، نفي الألوهية عما سوىٰ الله، وإثباتها لله عَزَّوَجَلَّ .

[٥] أنت قلت: الله ربي، أو ربي الله الذي رباني بنعمه، ما هو الدليل علىٰ أن الله ربك الذي ربَّاك بنعمه؟

جاء الشيخ بأدلة من الوحي ومن العقل كما سيأتي، فإذا قيل لك: بم عرفت ربَّك؟ لأن من ادَّعَىٰ شيئًا فلابد أن يقيم الدليل علىٰ دعواه:

والــدَّعاوىٰ إذا لَــم يُقــيموا علــيها بيــنات أهلُهــا أدعــياءُ

لابدَّ لكل مدع أن يقيم الدليل علىٰ دعواه، وإلا كانت دعواه غير صحيحة، أنت قلت: ربي الله الذي رباني وربىٰ جميع العالمين بنعمه، ما الدليل؟

فقل: الدليل آياته ومخلوقاته.

الآيات: جمع آية، والآية في لغة: العلامة علىٰ الشيء، والدلالة علىٰ الشيء، كما قال ﷺ: **«آية المنافق ثلاث»**[1]. أي: علامته.

قوله: «بآياته»، أي: العلامات والدلالات الدالة عليه ﷻ، فجميع هذه الكائنات التي ترونها كلها كانت معدومة، ثم إن الله أوجدها وخلقها بقدرته ﷻ.

ومنها خلق يتجدد مثل النبات والمواليد وأشياء ما كانت موجودة، ثم وجدت، وأنتم تنظرون إليها، من الذي يخلقها؟ هو الله ﷻ، هل تخلق نفسها، هل أحد من البشر خلقها؟ لا أحد ادعىٰ هذا، ولا يستطيع أن يدَّعي.

قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦]. هذه الأشياء ما أَوجَدَتْ نفسها، أو أوجدها غيرُها من المخلوقات أبدًا لم ولن يخلق أحدٌ شجرةً أو بعوضة أو ذبابًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣].

فهذا الخلق يدل علىٰ الخالق ﷻ، ولهذا لما قيل لأعرابي علىٰ البديهة: بِمَ عرفت ربك؟ قال: البعرةُ تدل علىٰ البعير، والأثر يدل علىٰ المسير، ألا يدل هذا الكون علىٰ اللطيف الخبير.

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن آياته: الليل والنهارُ، والشمسُ والقمر، ومن مخلوقاته: السموات السبع والأرضون السبع، وما فيهن وما بينهما [٦].

إذا رأيت أثر قدم على الأرض، أما يدلك هذا على أن أحدًا مشى على هذه الأرض؟ إذا رأيت بعر بعير، ألا يدلك هذا على أن هذه الأرض فيها إبل، أو مر عليها بعير؟ البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير.

[٦]قوله: «ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر»: فالآيات على قسمين:

القسم الأول: آيات كونية تشاهد، مثل السموات والأرض والنجوم، والشمس والقمر، والجبال، والشجر، والبحار، سميت آيات؛ لأن بها دلالات على خالقها سبحانه وتعالى، ولهذا يقول أبو العتاهية:

فيا عجبًا كيفَ يُعصىٰ الإلـ	ـهُ أم كيف يَجحدُه الجاحِدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ	تَدلُّ علىٰ أنه واحدُ
ولله في كلِّ تحريكة	وتسكينة في الورَىٰ شاهدُ

فكيف يجحد أحد الله -جل وعلا-، ويقول: ليس هناك رب لهذا الكون كله، وهذه المخلوقات وجدت من غير خالق، وإن وجدت بخالق فمن هو هذا الخالق غير الله -جل وعلا- بيِّنْ لي؟ لا تجد خالقًا غير الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد:١٦].

القسم الثاني: الآيات القرآنية التي تُتلىٰ من الوحي المنزل علىٰ الرسول ﷺ، هذه كلها أدلة علىٰ وجود الرب سبحانه وتعالى، وعلىٰ كماله وصفاته وأسمائه، وعلىٰ أنه مستحق للعبادة وحده لا شريك له، كلها تدل علىٰ ذلك الآيات الكونية والآيات القرآنية.

الآيات الكونية تدل على خالقها وموجدها ومدبرها، والآيات القرآنية فيها الأمر بعبادة الله، وفيها تقرير توحيد الربوبية، والاستدلال به على توحيد الألوهية، والأمر بعبادة الله ﷻ، كل القرآن يدور على هذا المعنى، وأُنزل من أجل هذا المعنى.

ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر، هذه من أعظم آياته ﷻ، الليل المظلم الذي يغطي هذا الكون، والنهار المضيء الذي يضيء هذا الكون، فينتشر الناس لأشغالهم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

هذا من أعظم آيات الله هذا الليل، وهذا النهار، لا الوقت كله ليل، ولا الوقت كله نهار؛ لأنه لو كان كذلك تعطلت مصالح العباد وتعبوا.

جعل الله لهم الليل والنهار يتعاقبان، ثم إن الليل والنهار منتظمان لا يتخلف واحد منهما ولا يتغير على نظام واحد؛ مما يدل على حكمة الحكيم ﷻ، أفعال العباد وصناعاتهم تخرب وتختلف مهما كانت وتتعطل، وأما مخلوقات الله ﷻ فإنها لا تخرب إلا في وقت يأذن الله فيه بخرابها.

فالليل والنهار مستمران لم يتعطل أحد منهما، بينما صناعة الخلق تتعطل وتخرب وتفنى، وإن كانت قوية أو ضخمة.

الدليل على ربوبيته وإلهيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

والدليلُ قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧][٧].

كم تشاهدون من السيارات المرمية والطائرات والبواخر مع أنها قوية ومعتنىٰ بها لكنها تخرب وتتعطل، هل تعطل الليل أو تعطل النهار؟ لا، لأن صانعه قدير حكيم -جل وعلا-: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل:٨٨].

[٧] هذا دليل علىٰ ربوبيته وإلهيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾.

الشمس والقمر: الشمس الكوكب العظيم الذي يضيء الكون سراجًا وهاجًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ:١٣].

والقمر: نور يضيء الليل، ويضيء الطريق للناس.

ومن مصالحهما أيضًا: إصلاح الكون بأشجاره وثماره وبحاره، فلو اختفت الشمس عن الكون لتضرر الكون وفسدت كثير من معايش الناس ومصالحهم، ولو اختفىٰ القمر كذلك، القمر أيضًا فيه منافع للثمار والأشجار، مع ما فيه أيضًا من معرفة الحساب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥].

....

وقال تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩].

ففي الأهلَّة مصلحة لمعرفة المواقيت والآجال، آجال الديون، وآجال العِدَدِ للنساء، ومواقيت العبادات، والصيام، والحج، كلها تعرف بالحساب المبني علىٰ هذين النيرين: الشمس والقمر، فالحساب الشمسي والحساب القمري فيهما مصالح للخلق أجمعين.

ومن مخلوقاته السموات السبع، قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٣]. بعضها فوق بعض، السماء الدنيا، ثم التي تليها إلىٰ السابعة، وفوق الجميع عرش الرحمن سبحانه وتعالى.

والأرضون سبع كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فهي سبع طباق أيضًا، وكل طبقة من طبقات السموات السبع والأرضين لها سكان وعُمَّار، ما في السموات من الكواكب والأفلاك الشمس والقمر، وما في الأرض من المخلوقات من الدواب باختلاف أنواعها، ومن الجبال والأشجار والأحجار، ومن المعادن، ومن البحار هذه من آيات الله سبحانه وتعالى، الآيات الكونية التي تُرىٰ وتُشاهد.

قال رحمه الله: والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

من آياته الليل: يعني من علاماته الدالة علىٰ الربوبية، وقدرته، واستحقاقه للعبادة دون سواه: الليل الذي يظلم، والنهار الذي يضيء الكون كله، هذا من عجائب آيات الله سبحانه وتعالى.

فمن الذي يجعل الكون كله مظلمًا في آن واحد؟ ثم يجعل الكون كله مضيئًا في آن واحد؟ هو الله ﷻ، لو اجتمع الخلق علىٰ أن يضيئوا بقعة من الأرض ما استطاعوا أن يضيئوا إلا بقعة محدودة، لو جاءوا بمكائن الكهرباء التي في الدنيا كلها لا تضيء إلا جزءًا محدودًا من الأرض.

أما الشمس والقمر فهما يضيئان الأرض كلها، الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر كذلك.

قال تعالىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

هذا إبطال للشرك، لا تسجدوا للمخلوقات؛ لأن من أعظم المخلوقات الشمس والقمر؛ ولأن المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها، ومنهم من يعبد القمر والكواكب مثل قوم إبراهيم يبنون لها هياكل علىٰ صورة الكواكب ويعبدونها، فقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ السجود معناه: وضع الجبهة علىٰ الأرض خضوعًا للمعبود، وهو أعظم أنواع العبادة، ورسول الله ﷺ يقول: «**أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد**»(١).

فأعظم أنواع العبادة السجود علىٰ الأرض؛ لأن وجهك الذي هو أعزُّ شيء عندك وضعتَه لله علىٰ الأرض تعبدًا لله وتذللًا بين يديه ﷻ، هذا هو السجود الحقيقي، ولا يليق التعبد به إلا لله.

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

أما السجود للشمس والقمر فهو سجود لمخلوق لا يستحق أن يسجد له، فلا يجوز السجود للمخلوقات، وإنما السجود لخالق المخلوقات، أما المخلوقات فهي مثلك مخلوقة مُدَبَّرة متصرَّف فيها، هل تسجد لمخلوق عاجز مثلك؟ هذا لا يجوز أين ذهبت العقول؟!

السجود إنما يستحقه الخالق ﷻ الذي لا يعجزه شيء، فالسجود حق لله ﷻ وليس حقًّا للمخلوق مهما كان هذا المخلوق من العِظَمِ والكِبَر فإنه مخلوق ضعيف مدبَّر متصرَّف فيه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

فالواجب: ألا نعبد إلا الله، فإذا سجدتم له، وسجدتم لغيره، فإنكم لا تكونون عابدين لله العبادةَ الصحيحة؛ بل تعبدونه مع الشرك، والشرك يفسد العبادة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤][٨].

---

[٨] ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، وهي موطئة للقسم، يقدر قبلها قسم تقديره والله.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾: فهي في جواب قسم مقدر.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أي: خالقكم، ومربيكم بالنعم.

﴿ٱللَّهُ﴾: لا غيره ﷻ.

ثم ذكر الدليل علىٰ ذلك فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا هو البرهان علىٰ ربوبية الله ﷻ، أنه خلق السموات والأرض، ولا أحد خلق شيئًا منهما، ولا أحد أعانه ﷻ علىٰ ذلك؛ بل هو المنفرد بخلقه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هل أحد من المشركين أو الملاحدة عارض هذا، وقال: ما خلق الله السموات والأرض، الذي خلقها هو فلان، أو أنا الذي خلقتها، أو خلقها الصنم الفلاني؟ هل قال هذا أحد من العالم قديمًا وحديثًا، مع أن هذه الآية تتلىٰ ليلًا ونهارًا؟ ولا أحد عارضها ولا يستطيع أن يعارضها أبدًا.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: هذه المخلوقات الهائلة العظيمة خلقها الله في ستة أيام، وهو قادر علىٰ أن يخلقها في لحظة، ولكنه خلقها في ستة أيام لحكمة يعلمها ﷻ، وستة الأيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، ففي يوم الجمعة تكامل الخلق؛ ولذلك صار هذا اليوم أعظم أيام الأسبوع، وهو سيد الأيام، وعيد الأسبوع، وهو أفضل الأيام.

....

قال رسول الله ﷺ: **«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة»**[(١)]. لأنه تكامل فيه خلق المخلوقات، وخُلِق فيه آدم وأُدخل الجنة، وأُهبط منها، وفيه تقوم الساعة، كل ذلك في يوم الجمعة، فهو أفضل الأيام، وهو آخر أيام الخلق خلق السموات والأرض وما فيهن.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ حرف عطف وترتيب، أي: أن استواءه على العرش جاء بعد خلق السموات والأرض؛ لأنه من صفات الأفعال التي يفعلها الله متىٰ شاء.

ومعنىٰ استوىٰ: ارتفع وعلا.

العرش: هو سقف المخلوقات.

وهو في اللغة: السرير، وهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو أعظم المخلوقات وأعلىٰ المخلوقات.

الاستواء: صفة من صفات الله الفعلية، كما يليق بجلاله ﷻ، ليس كاستواء المخلوق علىٰ المخلوق، وليس هو بحاجة إلىٰ العرش؛ لأنه هو الذي يمسك العرش وغيره: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١].

فالعرش محتاج إلىٰ الله ﷻ؛ لأنه مخلوق، والله غني عن العرش وغيره، لكنه استوىٰ عليه لحكمة يعلمها ﷻ، والاستواء نوع من العلو، لكن العلو صفة ذات، وأما الاستواء فهو صفة فعل يفعله إذا شاء ﷻ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٤)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٨٨)، والنسائي (٣/ ٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يغشي الليل بالنهار، ويغطي النهار بالليل، فبينما ترون الكون مضيئًا فإذا الليل يغطيه فيصبح مظلمًا، والليل يغطيه النهار فيصبح مضيئًا.

﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ يأتي هذا بعد هذا مباشرة ولا يتأخر، فإذا أدبر الليل جاء النهار، وإذا أدبر النهار جاء الليل مباشرة، لا يتأخر هذا عن هذا، وهذا من كمال قدرته سبحانه وتعالى، لا يفتر هذا عن هذا.

والشمس هي الكوكب العظيم المعروف، والقمر كذلك كوكب من الكواكب السبعة السيارة، وكل منهما يجري ويدور على الأرض، والأرض ثابتة مستقرة، جعلها قرارًا، أي قارة ثابتة لمصالح العباد، والشمس وسائر الأفلاك تدور عليها.

لا كما يقوله المتخرصون الآن من الذين يدَّعون المعرفة، يقولون: إن الشمس ثابتة والأرض تدور عليها هذا عكس ما في القرآن ... ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾[يس:٣٨]. وهم يقولون: الشمس ثابتة، يا سبحان الله!

والنجوم: هي الكواكب.

مسخرات بأمره: مسخرات في الجريان والدوران دائمًا لا يفترن، وهذا رد على الذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب بأنها مسخرة بأمر الله مأمورة، الله الذي يجريها، والله الذي يوقفها، إذا شاء سبحانه وتعالى، فهي مسخرة مدبَّرة ليس لها من الأمر شيء.

يأمرها سبحانه فتجري وتدور وتضيء بأمره الكوني سبحانه وتعالى، يطلع هذا ويغرب هذا ويتعاقبان، نصب الشمس والقمر، والنجوم على العطف؛ لأن السموات منصوب؛ لأنه مفعول وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث

سالم، والأرض معطوف علىٰ السموات منصوب بالفتحة، ثم قال: والشمس والقمر معطوف علىٰ المنصوب، والمعطوف علىٰ المنصوب منصوب.

مسخرات: منصوب علىٰ الحال، أي: حال كونها مسخرات، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المؤنث السالم. قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿أَلَا﴾: أداة تنبيه وتقرير، له ﷻ لا لغيره.

﴿ٱلْخَلْقُ﴾: وهو الإيجاد؛ فهو القادر علىٰ الخلق إذا أراد ﷻ يخلق ما يشاء.

والأمر: أمره ﷻ، وهو كلامه ﷻ الكوني والشرعي.

أمره الكوني: الذي يأمر به المخلوقات فتطيعه، وتستجيب له، مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١]. أمرهما سبحانه، وهذا أمر كوني أمر به السموات والأرض، فتكونت: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. هذا أمر كوني.

أما الأمر الشرعي: فهو وحيه المنزل الذي يأمر به عباده، يأمرهم بعبادته، يأمرهم بالصلاة، يأمرهم بالزكاة، يأمرهم ببر الوالدين، هذا أمره الشرعي، يدخل فيه الأوامر والنواهي التي في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، هذا من أمر الله ﷻ.

إذا كان له الخلق والأمر فماذا بقي لغيره ﷻ؟

ولهذا يقول ابن عمر لما قرأ هذه الآية، قال: «من له شيء فليطلبه».

ودلت الآية علىٰ الفرق بين الخلق والأمر ففيه ردٌّ علىٰ من يقولون بخلق القرآن؛ لأن القرآن من الأمر، وأمر الله ليس مخلوقًا؛ لأن الله غاير بين الخلق وبين الأمر فجعلهم شيئين متغايرين، والقرآن داخل في الأمر فهو غير مخلوق.

....

وهذا ما خَصَمَ به الإمام أحمد الجهميةَ لما طلبوا منه أن يقول بخلق القرآن. قال: هل القرآن من الخلق أو من الأمر؟ قالوا: القرآن من الأمر. قال: الأمر غير مخلوق، الله غاير بينه وبين الخلق، فجعل الخلق شيئًا والأمر شيئًا آخر.

الأمر كلام، وأما الخلق فهو إيجاد وتكوين، يوجد فرق بينهما.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: تعاظم الذي هذه أفعاله سبحانه وتعالى وهذه قدرته وهذه مخلوقاته -تبارك وتعالىٰ-.

وتبارك: فعل خاص به سبحانه، فلا يطلق علىٰ غيره، والبركة هي كثرة الخير ونماؤه، وبركات الله -جل وعلا- لا تتناهىٰ، أما المخلوق فلا يقال له: تبارك. إنما يقال له: مبارك يعني: بارك الله فيه وجعله مباركًا، والبركة كلها من الله سبحانه وتعالى.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: مثلما سبق ففي هذه الآية تقرير التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية كما سبق.

والربُّ هو المعبودُ، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢][٩].

---

[٩] قوله: «والرب هو المعبود» أي: هو الذي يستحق العبادة، وأما غيره فلا يستحق العبادة؛ لأنه ليس ربًّا، هذا وجه كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «الرب هو المعبود» أي: هو الذي يستحق العبادة، ثم أيضًا لا يكفي أن الإنسان يقرُّ بالربوبية بل لابد أن يقرَّ بالعبودية لله تَعَالَىٰ، ويفعلها مخلصًا له تَعَالَىٰ، فما دام أقر أنه الرب، فإنه يلزمه أن يقر أنه هو المعبود، وأن غيره لا يستحق شيئًا من العبادة.

والدليل علىٰ أن العبادة خاصة بالرب، قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هذا نداء من الله لجميع الناس المؤمنين والكفار؛ لأن الله ذكر في هذه السورة -سورة البقرة- انقسام الناس إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المؤمنون الذين يؤمنون بالغيب، ويؤمنون باليوم الآخر، ووصفهم بأنهم هم المفلحون في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:٥].

القسم الثاني: الكفار الذين أظهروا الكفر والعناد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

....

القسم الثالث: المنافقون الذين ليسوا مع الكفار، وليسوا مع المؤمنين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]. فهم مؤمنون في الظاهر لكنهم كفار في الباطن، وهؤلاء شرٌّ من الكفار المجاهرين بكفرهم، ولهذا أنزل الله فيهم بضع عشرة آية، بينما أنزل في المؤمنين آيات قليلة، وفي الكفار آيتين.

أما المنافقون فبدأ ذكرهم من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[البقرة:٨-٢٠].

هذا كله في المنافقين لشدة خطرهم وقبح فعلهم، ولما ذكر هذه الأصناف الثلاثة قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهذا دعاء لجميع الأصناف المؤمنين والكفار والمنافقين.

قال العلماء: أول نداء في المصحف هو هذا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

اعبدوا: فعل أمر، أي: أخلصوا له العبادة، لماذا؟ لأنه ربكم، والعبادة لا تصلح إلا للرب سبحانه وتعالى، ثم ذكر الدليل علىٰ ذلك، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: من الأمم كلهم، خلق الله سبحانه وتعالى الملائكة، والجن، والإنس، وجميع المخلوقات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: إذا تدبرتم هذا، فلعل هذا أن يسبب لكم التقوىٰ إذا تدبرتم أنه الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، لعلكم تتقونه سبحانه وتعالى في عبادته؛ لأنه لا يقي من عذابه إلا طاعته سبحانه وتعالى، لعلكم تتقون عذابي وتتقون النار؛ لأنه لا يقيكم منها إلا عبادة ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.

....

ثم واصل الاستدلال على ربوبيته وعبوديته ﷻ بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾؛ أي: بساطًا ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح:١٩]. أي: مبسوطة، وفراشًا، أي: تفترشونها، تنامون عليها، تبنون عليها، تزرعون على ظهورها، تسيرون عليها في سفركم أينما تريدون، فالأرض فراش ومهاد ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨]. لأجل مصالحكم.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾: فالسماء سقف الأرض، وفيها مصالح للعباد ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أنواع العبادة التي أمر الله بها، وأدلة كل نوع

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: الخالقُ لهذه الأشياء هو المستحقُّ للعِبادَة. وأنواع العبادة التي أمَرَ الله بها مثلُ الإسلام والإيمان والإحسان. [١٠].

---

[١٠] لما بين الشيخ أن الرب هو المعبود، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ استشهد بكلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للآية، وأراد أن يبين أنواع العبادة، وأدلة كل نوع، فالعبادة في اللغة معناها: التذلل والخضوع، ومنه طريق معبد، يعني: مذلل مخضع بالمشي عليه.

والعبادة قسمان:

القسم الأول: عبادة عامة لجميع الخلق، كلهم عباد الله، المؤمن، والكافر، والفاسق، والمنافق كلهم عباد الله، بمعنىٰ أنهم تحت تصرفه وقهره، وأنهم تجب عليهم عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه عبادة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، كلهم يقال لهم: عباد الله، بمعنىٰ أنهم مخلوقون له مذللون، لا يخرج أحد منهم عن قبضته وسلطانه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

هذا يشمل كل من في السموات والأرض المؤمن والكافر، كلهم يأتون يوم القيامة منقادين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس لأحد منهم شركة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ملكه.

القسم الثاني: عبودية خاصة بالمؤمنين كما قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان:٦٣]. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]. وقال الشيطان: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]. هذه عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة والتقرب إلىٰ الله بالتوحيد.

والعبادة في الشرع اختلف العلماء في تعريفها، يعني: اختلفت عباراتهم في تعريفها، والمعنىٰ واحد:

فمنهم من يقول: العبادة غاية الذل مع غاية الحب، كما قال ابن القيم في النونية:

وعبادةُ الرَّحْمَن غايةُ حُبِّه ... مع ذُلِّ عابده هما قطبان

فعرفها بأنها غاية الحب مع غاية الذل.

ومنهم من يقول: العبادة هي، ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي، ولا اقتضاء عقلي.

لأن العبادة توقيفية لا تثبت بالعقل، ولا بالعرف، وإنما تثبت بالشرع، وهذا تعريف صحيح.

ولكن التعريف الجامع المانع هو ما عرَّفه بها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: **العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.**

هذا التعريف الجامع المانع، وهو أن العبادة اسم لجميع ما أمر الله به، ففعل ما أمر الله به طاعة لله، وترك ما نهىٰ الله عنه طاعة لله، هذه هي العبادة، ولا تحصر

أنواعها، أنواعها كثيرة، كل ما أمر الله به فهو عبادة، وكل ترك لما نهىٰ الله عنه طاعة لله هو عبادة، ولا تحصر أنواعها، أنواعها كثيرة كل ما أمر الله به فهو عبادة، وكل ما نهىٰ الله عنه فتركه -سواء كان ظاهرًا علىٰ الجوارح، أو كان باطنًا في القلوب-، هو عبادة؛ لأن العبادة تكون علىٰ اللسان، وتكون علىٰ القلب، وتكون علىٰ الجوارح.

تكون علىٰ اللسان مثل: التسبيح، والذكر، والتهليل، والنطق بالشهادتين، كل أقوال اللسان المشروعة من ذكر الله، فإنها عبادة.

وكذلك كل ما في القلب من التقرب إلىٰ الله ﷻ فإنه عبادة: كالخوف، والرجاء، والخشية، والرغبة، والرهبة، والتوكل، والإنابة، والاستعانة، كل هذه أعمال قلب، اللجوء إلىٰ الله بالقلب، وخشية الله وخوفه، والرغبة إليه، ومحبته سبحانه، والإخلاص له، والنية الصادقة لله ﷻ، كل ما في القلوب من هذه الأنواع فهو عبادة.

وكذلك تكون العبادة علىٰ الجوارح مثل: الركوع والسجود، والجهاد في سبيل الله، والجهاد بالنفس، والهجرة، كل هذه عبادات بدنية، والصيام عبادة بدنية تظهر علىٰ الجوارح.

فإذن العبادة تكون علىٰ اللسان، وعلىٰ القلب، وتكون علىٰ الجوارح، ثم هذه العبادة تنقسم إلىٰ عبادة بدنية وإلىٰ عبادة مالية.

العبادة البدنية: هي الثلاثة الأنواع التي قلنا، تكون علىٰ اللسان، وعلىٰ الجوارح، وعلىٰ القلب.

....

وتكون مالية: مثل: إخراج الزكاة، ومثل: الإنفاق في سبيل الله، وهو الإنفاق في الجهاد، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ [التوبة: ٢٠]. قدَّم الأموال علىٰ الأنفس، فالجهاد بالمال عبادة مالية.

الحج يتكون من عبادة بدنية، وعبادة مالية، فأداء المناسك: الطواف، والسعي، ورمي الجمار، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة عبادة بدنية، أما الإنفاق فيه فهو عبادة مالية؛ لأن الحج يحتاج إلىٰ نفقة.

الإسلام، والإيمان، والإحسان ودليل كلٍّ

وأنواع العبادة التي أَمَرَ الله بها مثلُ الإسلام، والإيمان، والإحسان [١١].

---

[١١] والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أورد أمثلة للعبادة من باب التمثيل لا من باب الحصر؛ لأنها أكثر مما ذكره، ولا يمكن استيعابها في رسالة مختصرة، لكن ذكر أمثلة، ولشيخ الإسلام رسالة مستقلة، اسمها «العبودية» تبحث في العبادة، وأنواع العبادة، وبيان الانحرافات التي حصلت من الصوفية وغيرهم في العبادة، وهي رسالة قيمة يحتاج طالب العلم أن يقرأها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مثل الإسلام والإيمان، والإحسان»: هذه الأنواع الثلاثة أعظم أنواع العبادات، الإسلام، والإيمان والإحسان، وسيأتي شرحها في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأصل الثاني، وذكرها هنا؛ لأنها من أنواع العبادة.

فالإسلام بأركانه الخمسة؛ الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، هذه كلها عبادات مالية وبدنية، وكذلك الإيمان، بأركانه الستة، وهو من أعمال القلوب: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، هذا عبادة قلبية.

كذلك الإحسان وهو ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، هذا أعلىٰ أنواع العبادة؛ لأن الإحسان هو أعلىٰ أنواع العبادة، وهذه تسمىٰ مراتب الدين؛ لأن مجموعها هو الدين؛ لأن جبريل لما سأل النبي ﷺ بحضرة

الدعاء أقسامه ودليله

ومنه الدُّعاء، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبة، والخشوع، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها، كلها لله تعالىٰ [١٢].

أصحابه، وأجابه النبيﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»(١) **. فسمىٰ هذه الثلاثة: الدين.**

[١٢] قوله: «ومنه الدعاء». **أي: ومن أنواع العبادة: الدعاء، بدأ به لأنه أعظم أنواع العبادة:**

والدعاء علىٰ قسمين: **دعاء عبادة، ودعاء مسألة.**

دعاء العبادة: **هو الثناء علىٰ الله ﷻ كما في أول الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** [الفاتحة:٢-٥]. **هذا كله دعاء عبادة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾** [الفاتحة:٦]. **إلىٰ آخر السورة هذا دعاء مسألة.**

ودعاء المسألة: **هو طلب شيء من الله ﷻ كطلب الهداية، وطلب الرزق، وطلب العلم من الله، وطلب التوفيق.**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٨ و٩ و١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨][١٣].

[١٣] المساجد: تطلق ويراد بها أماكن السجود والبقاع التي يُصلَّىٰ فيها، وهي أحب البقاع إلىٰ الله ﷻ ، قد جاء الترغيب في بنائها وإعدادها، قال ﷺ: «**من بنىٰ مسجدًا لله كمفحص قطاة، أو أصغر، بنىٰ الله له بيتًا في الجنة**»[(١)].

يقول الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]. والمراد بالعمارة: العمارة الحسية، والمعنوية، عمارتها بالطين، وما تحتاج إليه حتىٰ تأوي المصلين، وتظلهم من الحر، وتكنُّهم من البرد، وعمارتها بالعبادة؛ بالصلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله ﷻ .

وتطلق المساجد، ويراد بها أعضاء السجود السبعة، وهي الجبهة، والأنف، واليدان والركبتان ورءوس القدمين؛ لأنها تسجد لله، والآية تشتمل المعنيين.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: البقاع التي يُصلَّىٰ فيها، وأعضاء السجود لله ﷻ .

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ لا تجعلوا هذه المساجد وهذه البقاع محلًّا للشرك ودعوة غير الله؛ بل يجب أن تطهَّر المساجد من الشرك، فلا يكون فيها قبور، ولا يكون فيها دعاء لغير الله، ولا يكون فيها بدع ومحدثات وحلقات صوفية مبتدعة. يجب أن تطهر المساجد عن البدع والشرك والمعاصي؛ لأنها لله ﷻ فلا يكون فيها إلا ما يرضي الله ﷻ ، فلا تدعوا مع الله أحدًا في هذه المساجد، أو تستخدموا أعضاءكم بالسجود لغير الله ﷻ ؛ لأن هذا شرك أكبر كالذي يسجد للصنم، أو للقبر، أو يسجد للوثن فهذا يسجد لغير الله ﷻ .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٥٤) (٢١٥٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن ماجه (٧٣٨)، وابن خزيمة (١٢٩٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

فمن صرف شيئًا منها لغير الله فهو مشرك كافرٌ، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٧].

وفي الحديث: «الدعاءُ مخُّ العبادة»[1].

والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠][١٤].

الشاهد في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أمر بإخلاص الدعاء له وحده.

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ يعم كل مدعو من دون الله سواء كان ملكًا، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو شجرًا، أو حجرًا، يعم كل من دُعِيَ من دون الله ﷻ فإنه يكون شركًا أكبر.

[١٤] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ أي: أمرَكُم ربُّكم وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أمر بدعائه سبحانه ووعد بالاستجابة، وهذا من كرمه ﷻ؛ لأنه غني عن دعائنا؛ ولكننا محتاجون لدعائه ﷻ، فهو يأمرنا بما نحتاج إليه وبما يصلحنا، وهو سبحانه يغضب إذا تركت سؤاله بينما المخلوق يغضب إذا سألته، ولهذا يقول الشاعر:

الله يغضبُ إن تركت سؤالَه ... وبنِي آدمَ حين يُسألُ يَغضبُ

ويقول آخر:

فلو سُئل الناسُ الترابَ لأوشكوا ... إذا قيل هاتوا أن يَملُّوا ويَمنعوا

فالناس أقسام ثلاثة:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك ؓ، وفي إسناده ابن لهيعة، ضعيف يعتبر به، قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

الأول: من لا يدعو الله أصلًا، فيكون مستكبرًا عن عبادة الله.

الثاني: من يدعو الله؛ ولكن يدعو معه غيره فيكون مشركًا.

الثالث: من يدعو الله مخلصًا له الدعاء، فهذا هو الموحد.

في الحديث أن النبي ﷺ قال: **«الدعاء مخ العبادة»**. وفي رواية: **«الدعاء هو العبادة»**[١]. فهذا يدل علىٰ عظيم الدعاء، وأنه أعظم أنواع العبادة؛ لأن الرسول ﷺ قال: **«مخ العبادة»**.

وفي رواية: **«الدعاء هو العبادة»**. والرواية الثانية أصح من رواية: **«الدعاء مخ العبادة»**. والمعنىٰ واحد.

فالحديث بروايتيه يبين عِظَمَ الدعاء، وأنه هو النوع الأعظم من أنواع العبادة، كما قال ﷺ: **«الحج عرفة»**[٢]. بمعنىٰ أن الوقوف بعرفة في الحج هو الركن الأعظم من أركان الحج، وليس معناه أن الحج كله هو عرفة؛ ولكن الوقوف بعرفة هو أعظم أركان الحج، كذلك ليست العبادة محصورة في الدعاء؛ ولكن الدعاء هو أعظم أنواعها، ولهذا قال: **«الدعاء هو العبادة»**. من باب تعظيم الدعاء، وبيان مكانته.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنه وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥) من حديث عبد الرحمن بن يعمَرَ الديلي رضي الله عنه.

الخوف أنواعه ودليله

ودليلُ الخوف قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] [١٥].

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلة أنواع العبادة التي ذكرها وهي: الخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[١٥] الخوف نوع من أنواع العبادة، وهو عبادة قلبية، وكذلك الخوف، والخشية، والرغبة، والرهبة، والرجاء، والتوكل كلٌّ هذه عبادات قلبية.

والخوف: هو توقع المكروه، وهو نوعان: خوف العبادة، والخوف الطبيعي.

النوع الأول: خوف العبادة، هذا صرفه لغير الله شرك، وذلك بأن يخاف غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يخاف أحدًا أن يمرضه، أو أن يقبض روحه، أو يميت ولده.

كما يفعل كثير من الجهال؛ يخافون علىٰ حمل زوجاتهم، وعلىٰ أولادهم من الجن، يخافون من السحرة، أو من الموتىٰ، فيعملون أعمالًا شركية لأجل أن يتخلصوا من هذا الخوف، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، الأمراض والموت والرزق وقطع الأجل، هذه أمور لا يقدر عليها إلا الله جَلَّ وَعَلَا .

وكذلك إنزال البركة، أو غير ذلك، هذه أمور لا تكون إلا من الله ﷻ فإذا خاف أحدًا في شيء لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله ﷻ .

كالذين يخافون من القبور، ومن الأضرحة، ومن الجن، ومن الشياطين، أن تمسهم بسوء، أو أن تنزل بهم ضررًا، فيذهبون يتقربون إلىٰ هذه الأشياء لدفع ضررها، أو خوفًا منها، هذا شرك أكبر.

يقول: أخاف إن لم أذبح له أن يصيبني أو يصيب أولادي، أو مالي، أو ما أشبه ذلك، كما قال قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يهددونه بآلهتهم، ويخوفونه بآلهتهم ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾[هود:٥٤-٥٦]. هذا هو التوحيد تحداهم كلهم هم وآلهتهم.

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلوني؛ بل من الآن فكيدوني، ولم يقدروا عليه بشيء؛ بل نصره الله عليهم.

فالذي يخاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ هذا يكون قد أشرك الشرك الأكبر، وهذا يسمىٰ خوف العبادة.

وخوف الشرك كثير في الناس، يخافون من القبور أو من الأولياء، يخافون من الشيطان، يخافون من الجن؛ ولذلك يقومون بتقديم القربات لهم، يقدمون لهم الذبائح والنذور والأطعمة وغير ذلك كإلقاء النقود علىٰ أضرحتهم من أجل أن يسلموا من شرهم، أو ينالوا من خيرهم، فهذا هو خوف العبادة.

النوع الثاني: الخوف الطبيعي: وهو أن تخاف من شيء ظاهر يقدر علىٰ ما تخافه منه، كأن تخاف من الحية، أو العقرب، أو من العدو؛ هذه أمور ظاهرة ومعروفة فالخوف منها لا يسمىٰ شركًا، هذا خوف طبيعي من شيء ظاهر معروف؛ لأنك تخاف من سبب ظاهر ومطلوب الوقاية منه، والحذر منه، تأخذ السلاح، تأخذ العصا لقتل الحية والعقرب، وقتل السبع؛ لأن هذه أمور محسوسة، وفيها ضرر معلوم، فإذا خفت منها، فهذا لا يسمىٰ شركًا؛ بل يسمىٰ خوفًا طبيعيًّا.

ولهذا قال الله في موسىٰ عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ أي: من البلد ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١]. خائفًا من أعدائه؛ لأنه قتل منهم نفسًا.

وهرب -عليه الصلاة والسلام- إلىٰ مَدْيَنَ، وكان يترقب، ويخشىٰ أن يلحقوه، فهذا خوف طبيعي؛ لكن تعلَّم الإنسان أن يعتصم بالله عز وجل، ويأخذ بالأسباب التي تدفع عنه الضرر، ويعتمد علىٰ الله عز وجل ويتوكل علىٰ الله.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. هذه الآية في سورة آل عمران في قصة النبي ﷺ مع المشركين يوم أُحد لما توعَّدهم المشركون وقالوا: نرجع إليهم، ونستأصلهم، فالله -جل وعلا- يقول: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. أي: أن هذا التهديد وهذا الوعيد إنما هو من الشيطان، أي: يخوفكم أولياءه أو يخوف مَنِ انقاد له من الناس، وخاف منه، فإنه يتسلط عليهم.

الرجاء ودليله

ودليلُ الرجاء قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] [١٦].

---

[١٦] قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾ يعني يطمع في ثواب الله ﷻ ورؤيته عيانًا يوم القيامة، من كان يطمع في أن يرىٰ الله عيانًا يوم القيامة؛ فليعمل عملًا صالحًا.

يأتي بالسبب الذي يؤهله لحصول هذا المطلوب، وهو الثواب بدخول الجنة، والنجاة من النار، والنظر إلىٰ وجه الله؛ لأن هذا متلازم؛ لأن من دخل الجنة فإنه يرىٰ الله ﷻ : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هذا يدل علىٰ أن الرجاء وحدَه لا يكفي، لابد من العمل.

أما أنك ترجو الله؛ ولكنك لا تعمل فهذا تعطيل للسبب، فالرجاء المحمود هو الذي يكون معه عمل صالح، أما الرجاء غير المحمود فهو الرجاء الذي ليس معه عمل صالح.

والعمل الصالح ما توفر فيه شرطان:

الأول: الإخلاص له ﷻ .

الثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

التوكل ودليله

ودليلُ التوكل قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [١٧].

فالعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه هذان الشرطان: أن يكون خالصًا لوجه الله ليس فيه شرك، وأن يكون صوابًا علىٰ سُنَّة رسول الله ﷺ ليس فيه بدعة، فإذا توفر فيه الشرطان فهو صالح، وإن اختل فيه شرط فإنه يكون عملًا فاسدًا لا ينفع صاحبه.

فالعمل الذي فيه شرك يرد علىٰ صاحبه، كذلك العمل الذي فيه بدعة يرد علىٰ صاحبه، قال ﷺ: **«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»**[1]. فهذه الآية فيها الرجاء، وأنه عبادة لله ﷻ، وفيها أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل الصالح.

[١٧] التوكل: هو التفويض والاعتماد علىٰ الله ﷻ، وتفويض الأمور إليه ﷻ. هذا هو التوكل، وهو من أعظم أنواع العبادة، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قدم الجار والمجرور علىٰ العامل؛ ليفيد الحصرَ.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ أي: عليه لا علىٰ غيره، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فجعل من شرط الإيمان التوكل علىٰ الله ﷻ، ودل علىٰ أن من لم يتوكل علىٰ الله فليس بمؤمن، فالتوكل عبادة عظيمة، فالمؤمن دائمًا يتوكل علىٰ الله، ويعتمد علىٰ

---

(١) سبق تخريجه (ص١٨).

....

الله ﷻ ، والله من أسمائه الوكيل، أي: الموكول إليه أمور عباده ﷻ، فالتوكل لا يكون إلا علىٰ الله، ولا يجوز أن يقول: توكلت علىٰ فلان؛ لأن التوكل عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله.

أما إذا أسندت إلىٰ أحد من الخلق تصرفًا، فهذا لا يسمىٰ توكلًا إنما يسمىٰ توكيلًا، والوكالة معروفة أنك توكِّل أحدًا يقضي لك حاجة، وقد وكَّل النبي من ينوبون عنه في بعض الأعمال، فالتوكيل غير التوكل، فالتوكل عبادة، ولا تكون إلا لله، ولا يجوز أن تقول: توكلت علىٰ فلان، وإنما تقول: وكَّلتُ فلانًا.

ومع هذا أنت توكله، ولا تتوكل عليه، وإنما تتوكل علىٰ الله ﷻ؛ فلاحظوا الفرق بين الأمرين التوكل والتوكيل.

ومن صفات المؤمنين ما ذكره الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]. هذه من صفات المؤمنين، فالتوكل عبادة عظيمة لا تكون إلا لله ﷻ؛ لأنه هو القادر علىٰ كل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو الذي يقدر أن يحقق لك مطلوبك، أما المخلوق فإنه قد لا يقدر أن يحقق لك مطلوبك فإنك توكله في قضاء شيء من الأمور، لكن تتوكل علىٰ الله في حصول ذلك الشيء.

ثم أيضًا لنعلم أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، فيجمع المسلم بين التوكل علىٰ الله، والأخذ بالأسباب، ولا تنافي بينهما، فأنت تعمل الأسباب التي أُمِرْتَ بعملها؛ ولكن لا تعتمد علىٰ الأسباب؛ وإنما تعتمد علىٰ الله، أنت تزرع الزرع في

الأرض، هذا سبب، ولكن لا تعتمد علىٰ زرعك وفعلك؛ بل اعتمد علىٰ الله في نمو هذا الزرع، وتثميره وحمايته وإصلاحه، ولهذا يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]. فالزارع الحقيقي هو الله، أما أنت فقد فعلت سببًا فقط قد ينتج هذا الزرع وينبت، وقد لا ينتج، وإذا نبت قد يصلح وقد لا يصلح، قد يصاب بآفة، فيذهب.

الرغبة والرهبة والخشوع ودليل كلٍّ

ودليلُ الرَّغبةِ والرَّهبة والخُشوع قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠][١٨].

---

[١٨] الرغبة: هي طلب الشيء المحمود.

الرهبة: هي الخوف من الشيء المرهوب، قال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]. وهي نوع من الخوف، الرهبة والخوف بمعنىٰ واحد.

الخشوع: نوع من التذلل لله ﷻ، والخضوع والذل بين يديه سبحانه وتعالى، وهو من أعظم مقامات العبادة.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ﴾ الضمير يرجع للأنبياء؛ لأن سورة الأنبياء قد ذكر الله قصص الأنبياء فيها، ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

فقوله تعالىٰ: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: يتسابقون إليها، ويبادرون إليها، هذه صفة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يتكاسلون، ولا يتعاجزون؛ وإنما يسارعون إلىٰ فعل الخيرات، ويتسابقون إليها.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ أي: طمعًا لما عند الله ﷻ، طمعًا في حصول المطلوب.

الخشية ودليلها

دليل الخشية قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [البقرة:١٥٠][١٩].

قوله تعالىٰ: ﴿وَرَهَبًا﴾ أي: خوفًا منا، فيدعون الله أن يرحمهم، ويدعونه ألا يعذبهم، وألا يؤاخذهم، وألا يعاقبهم، فهم يطمعون في رحمة الله، ويخافون من عذابه، كما قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧].

فهم يدعون الله خوفًا منه، ويدعونه أيضًا طمعًا فيما عنده، يدعون الله أن يقدر لهم الخير، ويدفع عنهم الشر ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي: خاضعين متذللين متواضعين لله ﷻ، فجمعوا بين الصفات الثلاث: الرغبة والرهبة والخشوع، هذه صفات الأنبياء -صلىٰ الله عليهم وسلم-، وهذه الأنواع الثلاثة من أنواع العبادة لله ﷻ.

وفيها ردٌّ علىٰ الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد الله رغبة في ثوابه ولا خوفًا من عقابه، وإنما نعبده محبة له فقط، هذا كلام باطل؛ لأن الأنبياء يدعون الله رغبًا ورهبًا وهم أكمل الخلق.

[١٩] الخشية نوع من الخوف، وهي أخصُّ من الخوف وقيل: الخشية: خوف يشوبه تعظيم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أمر الله ﷻ بخشيته وحدَه.

الإنابة ودليلها

ودليلُ الإنابة قولُه تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤][٢٠].

وقال تعالىٰ في الآية: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ فأمر بخشيته ﷻ، وقال في صفة المصلين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المعارج:٢٧]. أي: خائفون. هؤلاء خواص الخلق يخافون الله ﷻ.

وقال عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩﴾ [النحل:٥٠]. خواص الخلق من الملائكة، والرسل، والأنبياء، والصالحين يكونون علىٰ غاية عظيمة من خشية الله ﷻ، والخوف منه ﷻ، والرهبة منه، فالرهبة والخوف والخشية، كلها بمعنىٰ واحد، وإن كان بعضها أخص من بعض.

إلا أنها يجمعها الخوف من الله ﷻ، وهذه من صفات الأنبياء وعباد الله الصالحين، وهي أنواع عظيمة من أنواع العبادة، وهي من أعمال القلوب التي لا يعلمها إلا الله ﷻ.

[٢٠] الإنابة: الرجوع وهي بمعنىٰ التوبة، والتوبة والإنابة بمعنىٰ واحد.

ولكن بعض العلماء يقول: الإنابة أخصُّ من التوبة، أي: آكد لأنها توبة مع إقبال إلىٰ الله ﷻ، أي: توبة خاصة، والإنسان قد يتوب ويترك الذنب ولا يعود إليه، ويندم عليه، ولكن قد يكون في الإقبال علىٰ الله إقبال ضعيف.

أما الإنابة فهي إقبال على الله ﷻ ، ولهذا قال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ أي: ارجعوا له، وأقبلوا عليه ﷻ : ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ إذا جاء العذاب المهلك الماحق فإنها لا تُقبل توبةُ من تاب عند ذلك: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ ﴾[يونس:٩٨] . هذا مستثنىٰ، وإلا فإنه إذا نزل العذاب المهلك فإنها لا تقبل التوبة، ولهذا قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

فالتوبة والإنابة لهما أجل ولهما حدٌّ، فلا تقبل توبة مَنْ غَرْغَرَ أو من حضره الموت، ولا تقبل توبة من نزل به العذاب الماحق المهلك، ولا تقبل التوبة إذا خرجت الشمس من مغربها قبل قيام الساعة، لا تقبل التوبة حينئذٍ، فالله يحث العبد على التوبة والإنابة قبل انتهاء أجله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

الشاهد قوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ دل على أن الإنابة نوع من أنواع العبادة؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ فهذا يدل على أنها نوع من أنواع العبادة.

الاستعانة ودليلها

ودليل الاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله»(١) [٢١].

---

[٢١] الاستعانة: طلب العون، وهي على نوعين:

النوع الأول: الاستعانة بشيء لا يقدر عليه إلا الله، فهذه صرفُها لغير الله شرك، من استعان بغير الله في شيء لا يقدر عليه إلا الله، فإنه قد أشرك، لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله عَزَّ وَجَلَّ.

النوع الثاني: الاستعانة فيما يقدر عليه المخلوق، فأنت تستعين بأحد أن يبني معك الجدار، أو أن يحمل معك متاعك، أو أن يعينك على مطلوب مباح، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

فالاستعانة في الأمور العادية التي يقدر عليها الناس، هذا النوع لا بأس فيه؛ لأنه من التعاون على البر والتقوى، وقال ﷺ: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أما الاستعانة بالمخلوق في شيء لا يقدر عليه إلا الله، مثل جلب الرزق، ودفع الضرر، فهذا لا يكون إلا لله، كالاستعانة بالأموات، والاستعانة بالجن والشياطين، والاستعانة بالغائبين، وهم لا يسمعونك تهتف بأسمائهم، هذا شرك أكبر؛ لأنك تستعين بمن لا يقدر على إعانتك.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: هذا فيه تقديم المعمول علىٰ العامل، المعمول إياك في محل نصب، ونعبد هذا هو العامل الذي نصب إياك، وتقديم المعمول علىٰ العامل يفيد الحصر.

فمعنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أي: لا نعبد غيرك، فحصر العبادة في الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: حصر الاستعانة بالله عَزَّ وَجَلَّ، وذلك في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ براءة من الحول والقوة، وأن الإنسان لا قوة له إلا بالله، ولا يقدر إلا بالله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا غاية التعبد لله إذا تبرأ من الشرك، وتبرأ من الحول، ومن القوة، فهذا غاية التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ.

الاستعاذة ودليلها

ودليلُ الاستعاذة قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١][٢٢].

---

[٢٢] **الاستعاذة: طلب الالتجاء إلىٰ من يمنعك من محذور تخافه من أجل أن يدفع عنك هذا الشيء، هذه هي الاستعاذة.**

والاستعاذة نوع من أنواع العبادة، لا يجوز أن تستعيذ بغير الله ﷻ، فمن استعاذ بقبر، أو بوثن، أو بأي شيء غير الله ﷻ فإنه يكون مشركًا الشرك الأكبر، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

كان العرب في جاهليتهم إذا نزلوا في مكان من الأرض يقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي، أي: كبير الجن، يستعيذ به من شر سفهاء قومه.

فقال النبي ﷺ -مبطلًا لذلك، ومبينًا لما يشرع بدله-: «من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء حتىٰ يرتحل من منزله ذلك»[١].

هذا هو البديل الصحيح، الاستعاذة بكلمات الله التامات بدلًا من الاستعاذة بالجن.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها.

الفلق: هو الصبح. ورب الفلق: هو الله ﷻ كما قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]. أي: مظهر نور الصبح في ظلام الليل، من الذي يقدر علىٰ هذا إلا الله ﷻ.

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي: رب الصبح إذا أصبح، المالك المتصرف فيه القادر عليه.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: هذا يشمل شر جميع المخلوقات، يستعيذ بالله من شر جميع المخلوقات، هذا يكفيك عن كل استعاذة، أو تعوذ مما يفعله الناس.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

الغاسق: هو ظلام الليل؛ لأن ظلام الليل تخرج فيه الوحوش والسباع، فأنت تقع في خطر تستعيذ بالله من شر هذا الظلام، وما تحته من هذه المؤذيات.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ وهي السواحر تستعيذ بالله من السحر وأهله؛ لأن السحر شر عظيم.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ **الحاسد**: هو الذي يتمنىٰ زوال النعمة عن الغير، إذا رأىٰ علىٰ أحد نعمة، فإنه يغتاظ، ويتمنىٰ زوال هذه النعمة حسدًا وبغيًا والعياذ بالله، وهو من أعظم الخصال المذمومة؛ لأن فيه اعتراضًا علىٰ الله، وفيه إساءة إلىٰ الخلق.

ويدخل فيه العائن، الذي يصيب بنظرته؛ لأن الإصابة بالعين نوع من الحسد، فأنت تستعيذ بالله من هذه الشرور، فدل علىٰ أن الاستعاذة عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله، فلا تستعذ بالمخلوق، ومن استعاذ بمخلوق فقد أشرك بالله ﷻ،

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١][٢٣].

والنبي ﷺ يقول لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: **«وإذا استعنت فاستعن بالله»**[1].

[٢٣] وفي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١-٦]. أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالاستعاذة برب الناس ملك الناس إله الناس، هذه كلها أسماء وصفات لله عَزَّ وَجَلَّ، وفيها أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

استعذ بالله، وبهذه الأسماء والصفات، استعذ بالله من شر الوسواس، وهو الشيطان، أما الوِسواس بالكسر فهو مصدر وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ، وأما الوَسواس فهذا اسم من أسماء الشيطان؛ لأنه يوسوس للإنسان ويخيل إليه، ويشغله من أجل أن يلقي في قلبه الرعب والتردد والحيرة في أموره، خصوصًا في أمر العبادة فإن الشيطان يوسوس للإنسان في العبادة حتىٰ يلبِّس عليه صلاته أو عبادته، ثم ينتهي به الأمر إلىٰ أن يخرج من الصلاة، ويعتقد أنها بطلت، أو يصلي ثم يعتقد أنه علىٰ غير وضوء، أو أنه ما قام لكذا أو أنه ما فعل كذا، ويصبح في وسواس، ولا يطمئن إلىٰ عبادته.

فالله -جل وعلا- أعطانا الدواء لهذا الخطر، وذلك بأن نستعيذ بالله من شر هذا الوسواس.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: الذي يتخلف ويبتعد، فهو يوسوس إذا غفلت عن ذكر الله، ويخنس، أي: يتأخر إذا ذكرت الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو وسواس مع الغفلة، وخناس عند ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) سبق تخريجه (ص١١٣).

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: كأن المعنىٰ -والله أعلم- أنه هناك موسوسون من الجن، ومن الإنس يوسوسون للناس، يأتون الناس ويشككونهم، فكما أن للجن شياطين يوسوسون فكذلك للإنس شياطين يوسوسون فأنت تستعيذ بالله من شر القبيلين.

ولهذا يقول النبيﷺ: **«ما تعوذ متعوِّذٌ بمثلهما»**[1]. أي: هاتين السورتين؛ فينبغي للمسلم أن يقرأهما في أدبار الصلوات، ويكررهما ويقرأهما عند النوم مع آية الكرسي، وسورة الإخلاص.

يقرأ آية الكرسي، وسورة الإخلاص والمعوذتين، يقرؤهما دبر كل صلاة ويكررهما ثلاثًا بعد المغرب وبعد الفجر، وكذلك يقرؤهما عند النوم من أجل أن يبتعد عنه الشيطان؛ فلا يكدر عليه نومه ويزعجه بالأحلام.

الشاهد من هاتين السورتين: أن الله أمر بالاستعاذة به وحدَه؛ فدل علىٰ أن الاستعاذة بغيره من الجن، أو من الإنس، أو من أي مخلوق أنه لا يجوز؛ لأنها نوع من أنواع العبادة.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٣)، والنسائي (٨/ ٢٥٣)، وأحمد (٢٨/ ٥٣٠) (١٧٢٩٧) من حديث عقبة بن عامرﷺ.

الاستغاثة ودليلها

ودليل الاستغاثة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩][٢٤].

---

[٢٤] الاستغاثة: هي نوع من أنواع العبادة، وهي طلب الغوث، وهي لا تكون إلا عند الشدة، إذا وقع الإنسان في شدة فإنه يطلب الغوث من الله، والنجاة من هذه الشدة.

والاستغاثة على نوعين:

النوع الأول: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ وهذا شرك، فمن استغاث بغير الله من جن، أو إنس، أو غائبين، أو أموات، فإن هذا شرك بالله ﷻ.

فالاستغاثة بالأموات، وبالغائبين من الشياطين والجن هذا شرك بالله ﷻ.

النوع الثاني: الاستغاثة بالمخلوق الحاضر الحي فيما يقدر عليه، هذا جائز.

قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص:١٥].

الذبح أقسامه ودليله

ودليلُ الذَّبح قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

ومن السنة: «لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لغير الله»[1] [٢٥].

---

[٢٥] الذبح علىٰ أربعة أقسام:

الأول: الذبح علىٰ وجه التقرُّب والتعظيم لأحد ما، وهذا لا يجوز إلا لله تعالى؛ لأنه من العبادات المالية، فلا يجوز الذبح للجن، ولا للشياطين، ولا للملوك والرؤساء، تعظيمًا لهم؛ لأن هذه عبادة لا تجوز إلا لله عز وجل.

فالذين يذبحون للجن من أجل السلامة من شرهم، أو من أجل شفاء المرضىٰ، كما يفعله الكهان والمنجمون الذين يَّدعون العلاج ويقولون للناس: اذبحوا كذا لأجل شفاء مريضكم، ولا تذكروا اسم الله عليه، هذا شرك أكبر مخرج من الملة، وهذا الذي قال الله تعالىٰ محذرًا من فعله لغير الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]. أي: واذبح لربك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

النذر ودليله

ودليلُ النَّذرِ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧] [٢٦].

الثاني: الذبح من أجل أكل اللحم، هذا لا بأس به؛ لأنه ما ذبح من أجل التقرُّب والتعظيم لأحد، وإنما ذبح لحاجة والأكل منه، فهذا لا بأس به؛ لأنه ليس نوعًا من العبادة ويذبح لبيع اللحم.

الثالث: الذبح علىٰ وجه الفرح والسرور، بمناسبة زواج، أو مناسبة نزول مسكن جديد، أو قدوم غائب، أو ما أشبه ذلك بجمع الأقارب، ويذبح من باب إظهار الفرح والسرور بما حصل له، هذا لا بأس به؛ لأنه ليس فيه تعظيم لأحد، ولا تقرب لأحد، وإنما هو من باب الفرح والسرور في شيء حصل.

الرابع: الذبح من أجل التصدق باللحم علىٰ الفقراء والمساكين والمعوزين هذا يعتبر سنة وهو داخل في العبادة.

[٢٦] النذر: هو إلزام الإنسان نفسه بشيء لم يلزمه بأصل الشرع، كأن ينذرَ أن يصوم، أو ينذِرَ أن يتصدق بكذا، فيلزمه الوفاء بنذره؛ لقول النبي ﷺ: **«من نَذَرَ أن يطيع الله فليطعه»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦ و ٦٧٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام

تعريف الدين:

الأصلُ الثاني: معرفةُ دين الإسلام بالأدلة [٢٧].

والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز إلا لله، فمن نذر لقبر، أو صنم، أو غير ذلك فقد أشرك بالله عز وجل، وهو نذر معصية وشرك، وقد قال النبي ﷺ: **«ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»**[1].

[٢٧] فلما فرغ الشيخ من بيان معرفة الأصل الأول، وهو معرفة الله سبحانه وتعالى بالأدلة، انتقل إلىٰ بيان الأصل الثاني، وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

فقال: الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، ثم عرفه وبين معناه ثم ذكر مراتبه.

وقوله رحمه الله: «معرفة دين الإسلام»: الدِّين يراد به الطاعة، يقال: دان له إذا أطاعه فيما أمر وترك ما نهىٰ.

ويطلق الدِّين، ويراد به الحساب، كما في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة: ٤]. ويقال: دانه إذا حاسبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦ و٦٧٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهو الاستسلامُ له بالتوحيد، والانقيادُ له بالطَّاعة، والبراءةُ من الشِّرك وأهله [٢٨].

مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الحساب: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩].

قوله: «بالأدلة» أي: أن معرفة دين الإسلام لا تكون بالتقليد، أو تكون بالتخرص من عند الإنسان، الدِّينُ لابد له من أدلة من الكتاب والسنة.

أما الإنسان الذي لا يعرف دينه؛ وإنما يقلد الناس، ويكون إمعة مع الناس، فهذا لن يعرف دينه وحريٌّ به أنه إذا سئل عنه في القبر أن يقول: هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته(١).

فواجب على الإنسان أن يعرف دينه بالأدلة من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ ولا يعرف هذا إلا بالتعلُّم.

[٢٨] الإسلام مأخوذ من أسلم للشيء إذا انقاد له، أسلم نفسه للقتل، أي: خضع للقتل، فأسلم نفسه للشيء إذا انقاد له.

فالإسلام هو إسلام الوجه والقصد والنية له ﷻ : ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ [النساء:١٢٥].

﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٢]. أي: أخلص عمله لله ﷻ ، وانقاد لله عن طواعية واختيار ورغبة ومحبة.

الاستسلام لله بالتوحيد: وهو إفراد الله -جل وعلا- بالعبادة، وهذا هو معنى التوحيد، فمن عبد الله وحدَه لا شريكَ له، فقد استسلم له.

---

(١) انظر ما سلف (ص١٦).

قوله: «والانقياد له سبحانه بالطاعة»: فيما أمرك به، وما نهاك عنه، فما أمرك به تفعله، وما نهاك عنه تجتنبه طاعةً لله سبحانه وتعالى.

قوله: «والبراءة من الشرك وأهله»: البراءة معناها الانقطاع والاعتزال، والبعد عن الشرك وأهل الشرك، بأن تعتقد بطلان الشرك فتبتعد عنه، وتعتقد وجوب عداوة المشركين لأنهم أعداء الله عز وجل، فلا تتخذهم أولياء إنما تتخذهم أعداء؛ لأنَّهم أعداء لله ولرسوله ولدينه، فلا تحبهم ولا تواليهم؛ وإنما تقاطعهم في الدين، وتبتعد عنهم، وتعتقد بطلان ما هم عليه، فلا تحبهم بالقلب، ولا تناصرهم بالقول والفعل؛ لأنهم أعداء لربك وأعداء لدينك، فكيف تواليهم وهم أعداء الإسلام؟!

لا يكفي أنك تستسلم لله، وتنقاد له بالطاعة، وأنت لا تتبرأ من الشرك، ولا من المشركين، هذا لا يكفي، ولا تعدُّ مسلمًا حتىٰ تتصف بهذه الصفات:

أولًا: الاستسلام لله بالتوحيد.

ثانيًا: الانقياد له بالطاعة.

ثالثًا: البراءة مما يضاد التوحيد، ويضاد الطاعة وهو الشرك.

رابعًا: البراءة من أهل الشرك.

بتحقيق هذه الصفات تكون مسلمًا، أما إذا نقصت صفة واحدة منها، فإنك لا تكون مسلمًا، فبهذه الكلمات الثلاث لخص الشيخ تعريف الإسلام، وكم من إنسان لا يعرف معنىٰ الإسلام، لأنه لم يتعلم هذا الشيء، ولو قيل له: ما هو الإسلام؟ لم يجب جوابًا صحيحًا.

مراتب الدين

المرتبة الأولى: الإسلام.

وهو ثلاثُ مراتب:

الإسلام [٢٩].

والإيمانُ، والإحسانُ [٣٠].

---

[٢٩] معنىٰ المراتب:الدرجات؛ لأننا قلنا: إن الدين ثلاث درجات بعضها أعلىٰ من بعض، أول مرتبة من مراتب الدين هي الإسلام، ثم بعدها الإيمان، ثم بعدها الإحسان، فالإسلام أوسع، والإيمان أضيق من الإسلام، والإحسان أضيق من الإيمان.

فدائرة الإسلام واسعة، المنافقون يدخلون فيها إذا انقادوا إلىٰ الإسلام وأظهروه والتزموا به ظاهرًا، إذا صلَّوا مع المسلمين، وزكوا وعملوا الأعمال الظاهرة، يسمون مسلمين، وتطبق عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما علىٰ المسلمين، لكنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم ليس عندهم إيمان وإنما عندهم إسلام ظاهري فقط.

[٣٠] قوله:«الإيمان»: هذه هي المرتبة الثانية، والمؤمنون يتفاوتون، منهم المقربون، ومنهم الأبرار، والمقربون هم أصحاب أعلىٰ الدرجات، والأبرار دونهم،

وكلُّ مرتبة لها أركانٌ [٣١].

ومنهم الظالم لنفسه، وهو المرتكب للكبائر التي هي دون الشرك، فهو مؤمن فاسق، أو مؤمن ناقص الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر:٣٢].

قوله: «الإحسان»: هذه هي المرتبة الثالثة، وهي الإحسان، وهي أن يحسن العبد فيما بينه وبين الله، في عبادة الله ﷻ، وذكر النبي ﷺ الإحسان فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»(١). أي: يكون عندك علمٌ يقينيٌّ أن الله يراك أينما كنت.

[٣١] قوله: «وكل مرتبة لها أركان»: والأركان جمع ركن، وهو ما يقوم عليه الشيء.

فأركان الشيء جوانبه التي يقوم عليها، ولا يقوم بدونها، وتكون بداخل الشيء، خلاف الشروط فهي تكون خارج الشيء، مثل شروط الصلاة فهي خارج الصلاة قبلها، وأما أركان الصلاة فإنها بداخلها، مثل تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة، فإذا اختل شيء منها فإن الصلاة لا تصح، كما لو فقد شيء من أركان البنيان فإنه لا يقوم ولا يعتمد.

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٥٠)، وأخرجه مسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله

معناها ودليلها:

فأركانُ الإسلام خمسةٌ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ بيت الله الحرام [٣٢].

---

[٣٢] **لا يقوم الإسلام إلا علىٰ هذه الأركان، إذا فقدت فإن الإسلام لا يستقيم، وبقية الطاعات مكملات لهذه الأركان، كل الطاعات وأفعال الخير كلها مكملات لهذه الأركان، ولهذا سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بحضرة الصحابة قال: أخبرني عن الإسلام، قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا»[١].**

ففسر الإسلام بأنه هذه الأركان الخمسة، لكن حديث ابن عمر بيَّن أن هذه الخمسة هي مباني الإسلام، فقال: «بني الإسلام علىٰ خمس»[٢]. أي: أن هذه الخمس ليست هي الإسلام كله لكنها أركانه ومبانيه التي يقوم عليها، وبقية المشروعات مكملات ومتممات لهذه الأركان.

---

(١) التخريج السابق نفسه.

(٢) أخرجه البخاري (٨)، وأخرجه مسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فدليل الشهادة: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨] [٣٣].

---

[٣٣] قوله تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ﴾؛ أي: حكم وقضىٰ وأعلَمَ وبيَّن وألزم، فالشهادة من الله تدور علىٰ هذه المعاني الخمسة: الحكم والقضاء والإعلان والبيان والإلزام.

فمعنىٰ شهد: أي: قضىٰ سبحانه، وأعلم وأخبر، وألزم عباده بذلك، أنه لا إله إلا هو.

لا إله: لا نافية تنفي جميع ما عُبد من دون الله.

إلا هو: مثبت العبادة لله وحده.

ومعنىٰ أنه لا إله إلا هو: أي: لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى، أما من عبد غير الله، فإن عبادته باطلة، لقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢].

شهد لنفسه سبحانه وتعالى بالوحدانية، وهو أصدق القائلين، وشهادته سبحانه وتعالى أصدق الشهادات؛ لأنها صادرة عن حكيم خبير عليم، يعلم كل شيء، فهي شهادة صادقة.

والملائكة: شهدوا أنه لا إله إلا هو، وهم عالَمٌ خلقهم الله لعبادته، ملائكة كرام عباد مكرمون خلقهم الله لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأيضًا خلقهم الله لتنفيذ أوامره في الكون، وكَّل إليهم تنفيذ ما يأمر به تعالى من أمور الكون، فكل مَلَك منهم موكل بعمل، وشهادتهم شهادة صدق؛ لأنهم أهل علم وعبادة ومعرفة بالله عز وجل، وهم من أفضل الخلق علىٰ الخلاف، هل صالح البشر أفضل من الملائكة، أو الملائكة أفضل من صالح البشر؟ علىٰ خلاف.

....

وأولو العلم: صنفان: الملائكة، والصنف الثاني: أولو العلم من البشر، وأولو العلم لا يشهدون إلا بما هو حق بخلاف الجهال لا اعتبار بشهادتهم، وكل عالم من خلق الله يشهد لله بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وهذا فيه تشريف لأهل العلم حيث إن الله قرن شهادتهم مع شهادته ﷻ وشهادة ملائكته.

اعتبر شهادة أهل العلم من الخلق ودل علىٰ فضلهم وشرفهم ومكانتهم، علىٰ أعظم مشهود به وهو التوحيد.

والمراد بأولي العلم: أهل العلم الشرعي لا كما يقوله بعض الناس: إن أهل العلم المراد بهم أهل الصناعة والزراعة، فهؤلاء لا يقال لهم أهل العلم علىٰ وجه الإطلاق؛ لأن علمهم محدود مقيد، بل يقال: هذا عالم بالحساب، عالم بالهندسة، عالم بالطب، ولا يقال لهم: أهل العلم مطلقًا؛ لأن هذا لا يطلق إلا علىٰ أهل العلم الشرعي.

وأيضًا أكثر هؤلاء أهل علم دنيوي، وفيهم ملاحدة يزيدهم علمُهم -غالبًا- جهلًا بالله ﷻ وغرورًا وإلحادًا كما تشاهدون الآن في الأمم الكافرة، إنهم متقدمون في الصناعات، وفي الزراعة؛ لكنهم كفار فكيف يقال: إنهم أهل العلم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾؟!! هذا غير معقول أبدًا.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨] . المراد: علماء الشرع الذين يعرفون الله حق معرفته، ويعبدونه حق عبادته، ويخشونه.

أما هؤلاء فأغلبهم لا يخشون الله ﷻ ؛ بل يكفرون بالله ويجحدونه، ويدَّعون أن العالَم ليس له رب، وإنما الطبيعة هي التي توجده وتتصرف فيه، كما هو عند

الشيوعيين، إنهم ينكرون الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع أن عندهم علمًا دنيويًّا، كيف نقول: إن هؤلاء هم أهل العلم؟!

هذا غلط، فالعلم لا يطلق إلا علىٰ أهله، وهو لقب شريف لا يطلق علىٰ الملاحدة والكفار ويقال: هؤلاء أهل العلم!!

فالملائكة وأولو العلم شهدوا لله بالواحدانية.

إذن لا عبرة بقول غيرهم من الملاحدة والمشركين والصابئين الذين يكفرون بالله عَزَّ وَجَلَّ ، هؤلاء لا عبرة بهم ولا بقولهم؛ لأنه مخالف لشهادة الله وشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم من خلقه.

وقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: منصوب علىٰ الحال من شهد، أي: حالة كونه قائمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

والقسط: العدل، أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قائم بالعدل في كل شيء، والعدل ضد الجور، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكم عدل لا يصدر عنه إلا العدل في كل شيء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تأكيد للجملة الأولىٰ.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: اسمان لله عَزَّ وَجَلَّ يتضمنان صفتين من صفاته، وهما العزة والحكمة.

ومعناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، «لا إله» نافيًا جميعَ ما يُعبدُ من دون الله، «إلا الله»: مُثبتًا العبادةَ له وحدَهُ لا شريكَ له في عبادته كما أنه ليس له شريكٌ في مُلكه [٣٤].

---

[٣٤] قوله: «ومعناها: لا معبود بحق إلا الله»، أي: معنىٰ لا إله إلا الله ليس كما يقول أهل الباطل: لا خالق، ولا رازق إلا الله؛ لأن هذا توحيد الربوبية يقرُّ به المشركون، وهم لا يقولون لا إله إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٥-٣٦]. آلهتنا، أي: معبوداتنا ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يعنون الرسولﷺ، وصفوه بالشعر والجنون لأنه قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام.

ولما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله. قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]. يحسبون الآلهة متعددة.

فدل علىٰ أن معناها لا معبود بحق إلا الله، ولو كان معناها لا خالق ولا رازق إلا الله، فإن هذا يقرون به، ولا يمارون فيه، فلو كان هذا معناها ما امتنعوا من قول لا إله إلا الله؛ لأنهم يقولون إذا سئلوا من خلق السموات والأرض؟ يقولون: الله، إذا سئلوا من الذي يخلق؟ من الذي يرزق؟ من الذي يحيي ويميت؟ ويدبر الأمر؟ يقولون: الله. هم يعترفون بهذا، فلو كان هذا معنىٰ لا إله إلا الله لأقروا بهذا، لكن معناها لا معبود بحق إلا الله.

لو قلت: لا معبود إلا الله هذا غلط كبير؛ لأن المعبودات كلها تكون هي الله -تعالىٰ الله عن هذا-، لكن إذا قيدتها وقلت: بحق؛ انتفت المعبودات كلها إلا الله ﷻ، لابد أن تقول: لا معبود حق، أو لا معبود بحق إلا الله، ثم بيِّن ذلك علىٰ لفظ الكلمة:

وتفسيرُها الذي يوضِّحها قولُه تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨] [٣٥].

لا إله: النفي، نفي للعبودية عما سوىٰ الله.

إلا الله: هذا إثبات للعبودية لله وحده لا شريك له.

فلا إله إلا الله تشتمل علىٰ نفي وإثبات، ولابد في التوحيد من النفي والإثبات، لا يكفي الإثبات وحده، ولا يكفي النفي وحده؛ بل لابد من النفي والإثبات كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾.

فلو قلت: الله إله هذا. لا يكفي، اللات إله، والعزىٰ إله، ومناة إله، كل الأصنام تسمىٰ آلهة.

فلابد أن تقول: لا إله إلا الله، فلابد من الجمع بين النفي والإثبات حتىٰ يتحقق التوحيد وينتفي الشرك.

[٣٥] خير ما يُفسِّر القرآن القرآنُ، فلا إله إلا الله فسَّرها الله في القرآن، وذلك في قول الخليل -عليه الصلاة والسلام- فيما ذكر الله عنه: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ﴾ هذا النفي، لا إله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: يعني: إلا الله، هذا الإثبات.

فهذه الآية تفسير معنىٰ لا إله إلا الله تمامًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤] [٣٦].

---

[٣٦] وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذه الآية من سورة آل عمران نزلت في وفد نجران النصارىٰ الذين قدموا علىٰ النبي ﷺ، وناظروه وسألوه، وحصل بينهم وبينه كلام طويل، وهم نصارىٰ من نصارىٰ العرب، وفي النهاية طلب النبي ﷺ منهم المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١].

فلما طلب منهم المباهلة خافوا، ولم يباهلوه -عليه الصلاة والسلام-، ودفعوا له الجزية؛ لأنهم يعلمون أنهم علىٰ باطل، وأنه رسول الله ﷺ.

نبتهل، أي: ندعو باللعنة علىٰ الكاذب منا، وكانوا يعلمون أنهم هم الكاذبون، ولو باهلوه لنزلت عليهم النار وأحرقتهم في مكانهم، فقالوا: لا، لكن ندفع الجزية، ولا نباهلكم، فقبل النبي ﷺ منهم الجزية، لقد تبين لهم أن الله أمره بما في هذه الآية.

وهذه الآية فيها معنىٰ لا إله إلا الله، قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ هذا النفي، وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا الإثبات، وهذا هو العدل الذي قامت له السموات والأرض، فالسموات والأرض قامت علىٰ التوحيد والعدل، لا نشرك في عبادته شيئًا، لا المسيح الذي تزعمون أنه رب وتعبدونه من دون الله، ولا غير المسيح ولا محمد -عليه الصلاة والسلام-، ولا أحد من الأنبياء، ولا من الصالحين، ولا من الأولياء: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

....

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما اتخذتم الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

واتِّخاذ الأحبار والرهبان من دون الله بيَّنه رسول الله ﷺ في أنه طاعتهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله[1] هذا معنىٰ اتخاذهم أربابًا من دون الله، إذا كانوا يحللون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله فإذا أطاعوهم في ذلك، فقد اتخذوهم أربابًا؛ لأن الذي يشرع للناس، ويحلل ويحرم، هو الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ ولم يقبلوا دعوة التوحيد ﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أشهدوهم علىٰ أنكم موحدون وأنهم كفار، بينوا لهم بطلان ما هم عليه، ففي هذه الآية البراءة من دين المشركين والمصارحة بذلك، اشهدوا بأنا مسلمون، ففي هذا وجوب إعلان بطلان ما عليه المشركون، وعدم السكوت عن ذلك، والإعلان عن بطلان الشرك والرد علىٰ أهله.

* **والخلاصة:**

أن لا إله إلا الله لها ركنان: هما النفي والإثبات، فإذا قيل لك: ما هي أركان لا إله إلا الله، فتقول: النفي والإثبات.

---

(١) انظر: حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه الذي أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وفيه: قال رسول الله ﷺ: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم؛ ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه».

....

وشروطها سبعة لا تنفع إلا بهذه الشروط نظمها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لَهَا

فالعلم: ضده الجهل، فالذي يقول: لا إله إلا الله بلسانه ويجهل معناها، هذا لا تنفعه لا إله إلا الله.

واليقين: فلا يكون معه شك؛ لأن بعض الناس قد يعلم معناها؛ ولكن عنده شك في ذلك، فليس علمه بصحيح، لابد أن يكون عنده يقين بلا إله إلا الله، وأنها حق.

والإخلاص: ضده الشرك، بعض الناس يقول: لا إله إلا الله؛ ولكنه لا يترك الشرك، مثلما هو الواقع الآن عند عباد القبور، هؤلاء لا تنفعهم لا إله إلا الله؛ لأن من شروطها ترك الشرك.

والصدق: ضده الكذب؛ لأن المنافقين يقولون: لا إله إلا الله؛ لكنهم كاذبون في قلوبهم، لا يعتقدون معناها، قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[المنافقون:١-٢].

والمحبة: أن تكون مُحبًّا لهذه الكلمة وليًّا لأهلها، أما الذي لا يحبها أو لا يحب أهلها فإنها لا تنفعه.

والانقياد: ضد الإعراض والترك، وهو الانقياد لما تدل عليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وامتثال أوامره، ما دمت اعترفت وشهدت أنه لا إله إلا الله يلزمك أن تنقاد لأحكامه ودينه، أما أن تقول: لا إله إلا الله، ولا تنقاد لأحكام الله وشرعه، فإنها لا تنفعك لا إله إلا الله.

ودليلُ شهادةِ أن محمدًا رسولُ الله قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] [٣٧].

والقبول: القبول المنافي للرد، بألاَّ ترد شيئًا من حقوق لا إله إلا الله، وما تدل عليه؛ بل تقبل كل ما تدل عليه لا إله إلا الله، تقبله تقبلًا صحيحًا.

وزيدَ شرطٌ ثامن:

وزِيد ثامنها الكفران بما مع الإله من الأشياء قد ألها

أي: البراءة من الشرك، فلا يكون موحدًا حتىٰ يتبرأ من الشرك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف:٢٦].

هذه شروط لا إله إلا الله، ثمانية شروط.

[٣٧] **الركن الأول من أركان الإسلام مكون من شيئين:**

الأول: شهادة أن لا إله إلا الله.

والثاني: شهادة أن محمدًا رسول الله.

فهما ركن واحد، الشق الأول: يعني الإخلاص في العبادة، والشق الثاني: يعني متابعة الرسول ﷺ.

ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وأدلة شهادة أن محمدًا رسول الله كثيرة من: الكتاب، والسنة، والمعجزات الباهرات؛ الدالة علىٰ رسالته ﷺ.

ومن الكتاب هذه الآية، يقول تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهذه شهادة من الله لهذا الرسول ﷺ بالرسالة، وبيان صفاته.

قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ اللام هذه لام القسم، ففيها قسم مقدر، تقديره: والله لقد جاءكم.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق وتأكيد بعد تأكيد.

﴿جَآءَكُمْ﴾: أيها الناس، هذا خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالته ﷺ عامة لجميع الثقلين، الإنس والجن.

﴿رَسُولٌ﴾: هو من أُوحي إليه بشرع، وأُمِرَ بتبليغه، سمي رسولًا؛ لأنه مرسلَ من قبل الله تعالىٰ.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي من جنسكم من البشر، وليس ملكًا من الملائكة، وهذه سنة الله تعالىٰ أنه يرسل إلىٰ البشر رسلًا منهم من أجل البيان، ومن أجل أن يتخاطبوا معهم؛ ولأنهم يعرفونه.

لو أرسل إليهم ملكًا ما استطاعوا أن يتخاطبوا معه؛ لأنه ليس من جنسهم، وأيضًا لا يقدرون علىٰ رؤية الملك؛ لأنه ليس من جنسهم، من رحمته تعالىٰ أن أرسل إلىٰ الناس رسولًا من جنسهم؛ بل ومن العرب ومن أشرف بيوت العرب نسبًا، من بني هاشم الذين هم أشرف أنساب قريش، وقريش أشرف أنساب العرب، فهو خيار من خيار، يعرفونه، ويعرفون شخصه، ويعرفون نسبه، ويعرفون قبيلته، ويعرفون بلده، ولو كانوا لا يعرفونه فكيف يصدقونه؟ ولو كان بغير لغتهم فكيف يفهمون كلامه.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾.

فقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾: يعني شاق عليه ﷺ.

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾: يعني ما يشق عليكم، العنت معناه: التعب والمشقة، والرسول ﷺ يشق عليه ما يشق علىٰ أمته، وكان لا يريد لها المشقة وإنما يريد لها اليسر والسهولة؛ ولذلك جاءت شريعته ﷺ سهلة سمحة، قال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(١).

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

وقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦]. فشريعته سهلة تتماشىٰ مع قدرة الناس، واستطاعة المكلفين، ولا تحمِّلهم ما لا يطيقون.

ولهذا كان النبي ﷺ يحب لهم التيسير، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وكان يُحب أن يأتي بالعمل ويتركه شفقة بأمته، يترك العمل، وهو يحب أن يأتي به من الأعمال الصالحة من أجل ألاَّ يشق علىٰ أمته، هذه من صفاته، أنه يشق عليه ما يشق علىٰ أمته، ويسر بسرورها، ويفرح بفرحها، ومن كانت هذه صفته فلا شك أنه لا يأتي إلا بالخير والرحمة ﷺ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: علىٰ هدايتكم، وإخراجكم من الظلمات إلىٰ النور، ولذلك كان يتحمل المشاق في دعوة الناس طلبًا لهدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور حتىٰ قال الله له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. أي: لعلك مهلك نفسك ألا يكونوا مؤمنين من أجل الحزن عليهم، فلا تحزن عليهم،

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٦٢٣) (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

وهذا من كمال نصحه ﷺ.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿رَءُوفٌ﴾: من الرأفة، وهي الرفق واللطف.

﴿رَّحِيمٌ﴾: وصفه بالرحمة، فليس بغليظ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران:١٥٩].

كان ﷺ متواضعًا لينًا مع المؤمنين، يخفض لهم جناحه ويستقبلهم بالبشر والمحبة والعطف والإحسان، هذا من صفاته ﷺ.

ذكر الله خمس صفات في هذا الرسول ﷺ:

الأولىٰ: أنه منكم.

الثانية: عزيز عليه ما عنتم.

الثالثة: حريص عليكم.

الرابعة: بالمؤمنين رءوف.

الخامسة: رحيم.

خمس صفات من صفات هذا النبي ﷺ، وخص المؤمنين بالرأفة والرحمة؛ لأنه ﷺ كان غليظًا علىٰ المشركين والمعاندين، يغضب لغضب الله ﷻ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الرحمة والرأفة خاصة بالمؤمنين، وهكذا المؤمنون بعضهم مع بعض: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. هذه صفاته ﷺ.

ومعنىٰ شهادة أن محمدًا رسولُ الله: طاعَتُه فيما أمر، وتصديقه فيما أخبَرَ، واجتنابُ ما عنه نهىٰ وزجر، وألاَّ يُعبَدَ الله إلا بما شرع [٣٨].

---

[٣٨] شهادة أن محمدًا رسول الله لها معنىٰ ومقتضىٰ ليست لفظًا يقال فقط. فمعناها: أن تعترف بلسانك وبقلبك أنه رسول الله، تنطق بلسانك وتعتقد ذلك بقلبك، أنه رسول الله ﷺ.

أما التلفظ باللسان والإنكار بالقلب فهذه طريقة المنافقين، كما أخبرنا الله عنهم، بقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون:١-٢]. جعلوا أيمانهم -أي: شهاداتهم- سترة يستترون بها، فصدوا عن سبيل الله، فدل علىٰ أن النطق باللسان لا يكفي.

وكذلك اعتقاد القلب مع عدم النطق باللسان لمن يقدر علىٰ النطق أيضًا لا يكفي، فإن المشركين يعلمون أنه رسول الله؛ لكنهم يعاندون، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]. فهم بقلوبهم يعترفون بالرسالة، ويعرفون أنه رسول الله، لكن منعهم الكبر ومنعهم العناد من الإقرار برسالته.

وكذلك منعهم الحسد، كما عند اليهود، وعند مشركي العرب، وكان أبو جهل عمرو بن هشام يعترف ويقول: كنا نحن وبنو هاشم متساوين في كل الأمور؛ لكنهم قالوا: منا رسول، وليس منكم رسول من أين نأتي برسول؟ فلذلك أنكروا رسالته حسدًا لبني هاشم [١]، ويقول أبو طالب في قصيدته:

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٢٥١) قصة استماع قريش إلىٰ قراءة النبي ﷺ.

....

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا

يعترف بقلبه برسالة محمد؛ لكن منعته الحمية الجاهلية لقومه، فلم يكفر بدين عبد المطلب الذي هو عبادة الأصنام، فهم يعترفون بنبوته بقلوبهم، فلا يكفي الاعتراف بالقلب أنه رسول الله؛ بل لابد أن ينطق بلسانه.

ثم لا يكفي النطق باللسان والاعتراف بالقلب؛ بل لابد من أمر ثالث، وهو الاتباع، قال الله تعالىٰ فيه: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. حتىٰ لو نصره مثل أبي طالب وحامىٰ دونه، وهو يعرف أنه رسول الله لكن لم يتبعه، فإنه ليس بمسلم حتىٰ يتبعه، ولهذا قال الشيخ: ومعنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وألاَّ يعبد الله إلا بما شرع.

فلابد من الاعتراف برسالته ظاهرًا وباطنًا واعتقادًا، ولابدَّ من اتباعه ﷺ، ويتلخص ذلك في هذه الأربع كلمات التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الأولىٰ: طاعته فيما أمر، يقول الله -جل وعلا-: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]. ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]. فقرن طاعة الرسول مع طاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقرن معصية الرسول مع معصيته: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]. وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤]. وقال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[النور:٥٦].

فلابد من طاعته ﷺ، فالذي يشهد أنه رسول الله تلزمه طاعته فيما أمر لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. عن أمره، أي: عن أمر الرسول، فلابد من طاعة الرسول ﷺ.

الثانية: تصديقه فيما أخبر؛ لأن الرسول ﷺ أخبر عن أمور كثيرة مغيبة، أخبر عن الله، وعن الملائكة، وأخبر عن أمور غائبة، وأخبر عن أمور مستقبلة من قيام الساعة، وأشراط الساعة، والجنة والنار، وأخبر عن أمور ماضية عن أحوال الأمم السابقة، فلابد من تصديقه فيما أخبر، لأنه صدق لا كذب فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

الرسول ﷺ لا يتكلم بهذه الأخبار، أو هذه الأوامر والنواهي، لا يتكلم بشيء من عنده -عليه الصلاة والسلام-، إنما يتكلم بوحي من الله ﷻ فأخباره صدق، ومن لم يصدقه فيما أخبر فليس بمؤمن ولا صادق في شهادته أنه رسول الله، كيف يشهد أنه رسول الله ويكذبه في أخباره؟! كيف يشهد أنه رسول الله ولا يطيع أمره؟!

الثالثة: اجتناب ما نهىٰ عنه وزجر: اجتنب ما نهاك عنه الرسول ﷺ. نهاك عن أقوال وأفعال وصفات كثيرة، ولا ينهىٰ ﷺ إلا عن شيء فيه ضرر وفيه شر، ولا يأمر إلا بشيء فيه خير وفيه بر، فإذا لم يجتنب العبد ما نهىٰ عنه رسول الله ﷺ لم يكن شاهدًا له بالرسالة؛ بل صار متناقضًا، كيف يشهد أنه رسول الله، ولا يجتنب ما نَهاه عنه الرسول ﷺ، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

قال ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[(١)]. فلابد من اجتناب ما نهىٰ عنه ﷺ.

الرابعة: ألاَّ يُعبد الله إلا بما شرع: تقيَّد في العبادات بما شرعه الله لرسوله ﷺ فلا تأت بعبادة لم يشرعها الرسول ﷺ، وإن كان قصدك حسنًا، وإن كنت تريد الأجر، لكن هذا عمل باطل؛ لأنه لم يأت به الرسول ﷺ. النية لا تكفي؛ بل لابد من الاتباع.

فالعبادات توقيفية لا يجوز الإتيان بعبادات لم يشرعها رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[(٣)].

فالإتيان بعبادة لم يشرعها رسول الله تعتبر بدعة منكرة منهيًّا عنها، وإن قال بها فلان أو فلان، أو فعلها من فعلها من الناس ما دامت خارجه عما جاء به الرسول ﷺ فإنها بدعة وضلالة، فلا يعبد الله إلا بما شرع علىٰ لسان رسوله، والمحدثات والخرافات كلها عمل باطل، ونقص وضلال علىٰ من أتىٰ بها، وإن كان يقصد بها

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) سبق تخريجه (ص١٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣)، وأحمد (٢٨/ ٣٧٣) (١٧١٤٤) من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] [٣٩].

الخير ويريد الأجر، فإن العبرة ليست بالمقاصد، وإنما العبرة بالاتباع والطاعة والانقياد، ولو كنا أحرارًا نأتي بما نشاء ونستكثر من العبادات ما نشاء لما احتجنا إلىٰ بعثة الرسول ﷺ.

ولكن من رحمة الله بنا لم يكلنا إلىٰ عقولنا، ولم يكلنا إلىٰ فلان وعلان من الناس؛ لأن هذه الأمور مردها إلىٰ الشرع إلىٰ الله ورسوله، ولا ينفع منها إلا ما كان موافقًا لما شرعه الله ورسوله، ففي هذا الابتعاد عن جميع البدع، ومن ابتدع شيئًا في الدين لم يأت به الرسول ﷺ فإنه لم يشهد أنه رسول الله، لم يشهد الشهادة الحقيقية؛ لأن الذي يشهد أنه رسول الله ﷺ شهادة حقيقية يتقيد بما شرعه، ولا يحدث شيئًا من عنده أو يتبع شيئًا محدثًا ممن سبقه.

هذا معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله ليست ألفاظًا تقال باللسان فقط من غير التزام، ومن غير عمل، ومن غير تقيد بما جاء به هذا الرسول ﷺ.

[٣٩] فالصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، والزكاة هي الركن الثالث، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله، الصلاة عمل بدني، والزكاة عمل مالي.

وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»[١] لما امتنع أناس من دفع الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه، وقال: «والله

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠).

....

لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عِقالًا -وفي رواية: عناقًا- كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه».

فالزكاة حق واجب في الأموال، وهي ركن من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله ﷻ في كثير من الآيات، ومنها هذه الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾.

دليل التوحيد في أولها في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا هو تفسير التوحيد، وهو عبادة الله مع الإخلاص له، وترك عبادة ما سواه، فالدين والتوحيد والعبادة بمعنىٰ واحد.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: العبادة، هذا تفسير التوحيد، لا كما يقوله علماء الكلام: إنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت هذا توحيد الربوبية، والمطلوب هو توحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا يصير المسلم مسلمًا إلا إذا جاء به.

أما من جاء بتوحيد الربوبية فقط، فهذا ليس مسلمًا بدليل أن المشركين يعتقدونه وينطقون به، ويعترفون به، ولم يدخلهم في الإسلام، ولم يمنع من قتلهم وسبي أموالهم توحيدهم هذا؛ لأنهم ليسوا موحدين لما أشركوا بالله ﷻ في العبادة؛ هذا هو تفسير التوحيد من كتاب الله لا من كتاب فلان وعلان، كتاب «الجوهرة»[(١)]،

---

(١) كتاب «جوهرة التوحيد» كتاب يقرر مذهب الأشاعرة، وفيه مخالفات كثيرة لمذهب أهل السنة والجماعة.

أو كتاب «المواقف»[(١)]، أو كتب علماء الكلام، لا يؤخذ تفسير التوحيد من هذه الكتب وإنما يؤخذ من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ، ومن كتب أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

ودليل الصلاة في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والمعنىٰ أن يأتوا بها كما أمر الله ﷻ بشروطها وأركانها وواجباتها، أما مجرد صورة الصلاة فإنها لا تكفي، ولهذا لم يقل: ويصلوا، بل قال: ويقيموا الصلاة، ولا تكون الصلاة قائمة إلا إذا أتىٰ بها كما أمر الله سبحانه وتعالى.

أما الذي يصلي مجرد صورة في أي وقت يشاء، أو بدون طهارة، وبدون طمأنينة، ولا يأتي بمتطلبات الصلاة، هذا لم يصل، ولهذا قال ﷺ للمسيء في صلاته الذي لا يطمئن في صلاته قال له: **«ارجع فصل، فإنك لم تصل»**[(٢)].

ليس مقصودًا صورة الصلاة من قيام وركوع وسجود وجلوس فقط، ليس هذا المقصود؛ بل المقصود أن يؤتىٰ بها كما شرع الله سبحانه وتعالى مستوفية لكل متطلباتها الشرعية.

ثم ذكر دليل الزكاة بقوله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يدفعوا الزكاة للمستحقين لها، الذين ذكرهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

(١) كتاب «المواقف في علم الكلام» للإيجي.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ودليل الصِّيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣][٤٠].

ذكر ثمانية مصارف وحصرها بـ: «إنما» فلا يكون صرفها في غير هذه المصارف الثمانية، فمن صرفها في غير مصارفها الثمانية لم يكن قد آتىٰ الزكاة، ولو أنفق أموالًا طائلة ملايين أو مليارات وسماها زكاة، ولا تكون زكاة حتىٰ توضع في مواضعها التي حصرها الله تعالىٰ فيها، هذا معنىٰ إيتاء الزكاة.

وأيضًا في وقتها أي: يخرجها وقت وجوبها، لا يتباطأ ويتأخر ويتكاسل، طيبة بها نفسه، أي: لا يعتبرها مغرمًا أو خسارة؛ وإنما يعتبرها مغنمًا له.

هذه الأمور الثلاثة هي: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ الدين: الملة، القيمة: صفة لموصوف محذوف تقديره دين الملة القيمة، أي: المستقيمة.

هذا دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد.

[٤٠] الصيام لا يجب إلا علىٰ المسلمين، أما الكفار لو فعلوه ما صح منهم حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ما داموا علىٰ الكفر فإنهم لا تنفعهم العبادات لا صيام ولا غير صيام؛ ولذلك خاطب به المؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يستجيبون، وهم الذين يصح منهم الصيام، ويقبل منهم الصيام.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ معنىٰ كتب: فرض، مثل قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦]. يعني: فرض عليكم القتال، فالكتب في كتاب الله معناه الفرض.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: كما فرض علىٰ الذين من قبلكم من الأمم، فدل علىٰ أن الصيام كان معروفًا عند الأمم السابقة وفي الشرائع القديمة، ولم تختص به شريعة محمد ﷺ.

والنفس قد تتثاقل الصيام لما فيه من كبح جماحها ومنعها من الشهوات، والله -جل وعلا- بيَّن أنه سُنته في خلقه وأنه على جميع الأمم، حتى في الجاهلية كان الصيام معروفًا، كانوا يصومون يوم عاشوراء.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذا بيان للحكمة من الصيام، فلعلكم تتقون: بيان للحكمة في مشروعية الصيام، وهو أنه يسبب التقوى؛ لأن الصيام يترك به الإنسان مألوفاته وشهواته ومرغوباته تقربًا إلى الله ﷻ فيكسبه التقوى، كما أنه يكسر أيضًا شهوة النفس وحدتها؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فمع تناول الشهوات يتسلط الشيطان، ومع ترك الشهوات يضعف مجرى الدم فيطرد الشيطان عن المسلم ففي الصيام حصول التقوى التي هي جماع الخير كله.

فهذه فائدة الصيام أنه يسبب التقوى، تقوى الله ﷻ، واتقاء المحارم والشهوات المحرمة؛ لأن الإنسان إذا ترك المباحات طاعة لله كان من باب أولى أن يترك المحرمات، الصيام يدربه على تجنب الحرام، ويدربه على التمكن من نفسه الأمارة بالسوء، ويطرد عنه الشيطان، ويليِّن قلبه للطاعة.

ولذلك تجد الصائم أقرب إلى الخير من المفطر، تجده يحرص على تلاوة القرآن وعلى الصلاة، ويذهب إلى المسجد مبكرًا، الصيام ليَّنه للطاعة وهذَّبه، كل هذا داخل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فالشاهد من الآية قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ هذا دليل على فرضية الصيام، وفسره بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[البقرة:١٨٥]. لأن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ مجمل فسره بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[البقرة:١٨٥].

ودليل الحجّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧][٤١].

---

[٤١] ادعىٰ اليهود أنهم مسلمون، وأنهم علىٰ دين إبراهيم فامتحنهم الله -جل وعلا- في هذه الآية، وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإن كنتم مسلمين فحجوا؛ لأن الله فرض حج البيت علىٰ المسلمين، فإذا لم تحجوا وأبيتم الحج، فهذا دليل علىٰ أنكم لستم مسلمين، ولستم علىٰ ملة إبراهيم ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ولله أي: هذا فرض وحق وواجب لله ﷻ علىٰ الناس.

حج: معناه في اللغة: القصد.

الحج شرعًا: قصد الكعبة المشرفة والمشاعر المقدسة في وقت مخصوص لأداء عبادات مخصوصة، وهي مناسك الحج.

حج البيت، أي: الكعبة، وما حولها من المشاعر تابع لها.

من استطاع إليه سبيلًا: هذا بيان شرط الوجوب، وهو الاستطاعة البدنية والاستطاعة المالية، الاستطاعة البدنية بأن يكون قادرًا علىٰ المشي والركوب والانتقال من بلده إلىٰ مكة في أي مكان من الأرض، هذه البدنية، يخرج العاجز عجزًا مستمرًا كالمريض مرضًا مزمنًا والكبير الهرم، فهذا ليس عنده استطاعة بدنية، فإن كانت عنده استطاعة مالية فإنه ينيب من يحج عنه حجة الإسلام.

أما الاستطاعة المالية فهي توفر المركب الذي ينقله، الراحلة، أو السيارة، أو الطيارة، أو الباخرة كل وقت بحسبه، ويكون عنده مال يستطيع أن يوفر له المركب الذي يمتطيه لأداء الحج، وأيضًا الزاد يكون عنده زاد ونفقة له في السفر

ذهابًا وإيابًا، ولمن يمونهم يكون عندهم كفايتهم إلىٰ أن يرجع إليهم، فالزاد معناه أن يكون عنده ما يكفيه في سفره، ويكفي من يمون من أولاده ووالديه وزوجته، وكل من تلزمه نفقته يؤمِّن لهم ما يكفيهم حتىٰ يرجع إليهم بعد تأمين سداد الديون إن كان عليه ديون، يكون هذا المال فاضلًا بعد سداد الديون، فإذا توفر هذا فيكون هذا هو السبيل، «**الزاد والراحلة**»[1]. كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن لم يستطع، أي: من ليس عنده زاد، ولا راحلة فليس عليه حج؛ لأنه غير مستطيع، فشرط وجوب الحج هو الاستطاعة.

ولما كان الحج يؤتَىٰ إليه من بعيد من كل أقطار الأرض، من كل فج عميق، ويحتاج إلىٰ مؤنة، وفيه مشقة وتعب، وقد يحصل فيه أخطار فمن رحمة الله أن جعله في العمر مرة واحدة، وما زاد عليها فهو تطوع، هذا من رحمة الله سبحانه وتعالى حيث لم يوجبه علىٰ المسلم كل سنة، كما قال النبي ﷺ: «**إن الله فرض عليكم الحج فحجوا**. قال الأقرع بن حابس رضي الله عنه: أكل سنة يا رسول الله؟ فسكت عنه الرسول ﷺ ثم أعاد السؤال، فسكت عنه النبي ﷺ ثم أعاد السؤال، فقال النبي ﷺ: **لو قلت: نعم، لوجبت ولما استطعتم، الحج مرة واحدة فما زاد فهو تطوع**»[2]. هذا من رحمة الله.

---

(١) أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه ابن ماجه (٢٨٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٥١) (٢٣٠٤)، وأبو داود (١٧٢١)، والنسائي (٥/ ١١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه دليل على أن من امتنع عن الحج وهو يقدر ولم يحج فإنه كافر، لأن الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أي: من أبىٰ أن يحج وهو قادر علىٰ الحج، فإن هذا كفر، قد يكون كفرًا أصغر، فمن تركه جاحدًا لوجوبه هذا كفر أكبر بإجماع المسلمين.

أما من اعترف بوجوبه وتركه تكاسلًا فهذا كفر أصغر، ولكن إذا توفي، وكان له مال، فإنه يُحج من تركته؛ لأنه دين عليه لله ﷻ، وهذه الآية فيها وجوب الحج، وهو ركن من أركان الإسلام، وبيَّن الرسول ﷺ أنه ركن من أركان الإسلام في حديث جبريل[1]، وفي حديث ابن عمر[2].

وقد فُرض الحج في السنة التاسعة علىٰ قول، ولم يحج النبي ﷺ في هذه السنة، وإنما حج في السنة التي بعدها في السنة العاشرة. لماذا؟ لأنه ﷺ أرسل عليًّا ينادي في الناس في الموسم: «**ألاَّ يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان**»[3]. فلما منع المشركون والعراة من الحج في العام العاشر حج النبي ﷺ حجة الوداع.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٢٥).

(٢) سبق تخريجه (ص١٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المرتبة الثانية: الإيمان

تعريف الإيمان:

المرتبة الثانية: الإيمان: وهو بضعٌ وسبعونَ شعبةً، فأعلاها: قولُ لا إله إلا الله، وأدناها: إماطَةُ الأذَىٰ عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان [٤٢].

---

[٤٢] فالإيمان أعم من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فالإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله.

والإيمان في اللغة: التصديق، قال تعالىٰ علىٰ لسان إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ﴾ [يوسف:١٧]. أي: بمصدق لنا.

وأما الإيمان في الشرع: فهو كما فسره أهل السنة والجماعة: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وهو بهذا التفسير يكون حقيقة شرعية؛ لأن الحقائق ثلاث:

حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عرفية.

فتفسير الإيمان بهذا التفسير هو حقيقة شرعية، فالإيمان نقل من المعنىٰ اللغوي إلىٰ المعنىٰ الشرعي.

فالإيمان: قول باللسان، لابد من النطق والاعتراف باللسان، واعتقاد بالقلب، لابد من أن يكون ما ينطق به بلسانه معتقدًا له بقلبه وإلا كان مثل إيمان المنافقين الذين ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الفتح:١١].

....

ولا يكفي القول باللسان والاعتقاد بالقلب؛ بل لابد من العمل بالجوارح أيضًا، لابد من أداء الفرائض، وتجنب المحرمات، فيفعل الطاعات، ويتجنب المحرمات، كل هذا من الإيمان، وهو بهذا التعريف يشمل الدين كله، لكن هذه الطاعات والشرائع الكثيرة منها ما هو جزء من حقيقة الإيمان، ومنها ما هو مكملات للإيمان.

والإيمان له أركان، وله شُعَب، وقد بينها النبيﷺ في حديثين، بيَّن أركان الإيمان في حديث جبريل، وبيَّن شعب الإيمان في حديث: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**». وهذا يأتي إن شاء الله.

والإيمان والإسلام إذا ذُكِرَا جميعًا صار لكل واحد معنىٰ، وإذا ذكر منهما واحد فقط دخل في الآخر، فإذا ذكرا جميعًا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، وهي أركان الإسلام الخمسة، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة، وهي الأركان الستة ومحلها القلب، ولابد من اجتماعها في المسلم، لابد أن يكون مسلمًا مؤمنًا يقيم أركان الإسلام، ويقيم أركان الإيمان لابد من اجتماعها.

قالﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة**» روايتان[1].

قوله: «بضع»: البضع هو ما بين الثلاثة إلىٰ التسعة، فإذا قيل: بضعة عشر: هو ما بين ثلاثة عشر إلىٰ تسعة عشر، وإذا قيل: بضع فقط فهو ما بين الثلاثة إلىٰ التسعة.

قوله: «شعبة»: الشعبة هي القطعة من الشيء، أي: أن الأركان بضع وسبعون قطعة أو جزءًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٩) بلفظ: «وستون»، ومسلم (٣٥) بروايتيه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

قوله: «أعلاها»، أي: أعلىٰ هذه الشعب قول: لا إله إلا الله، فهي رأس الإسلام، ورأس الإيمان، وهي الركن الأول، وهي مدخل الدين.

قوله: «أدناها»، أي: آخرها وأقلها.

قوله: «إماطة الأذىٰ عن الطريق»، أي: إزالة الأذىٰ عن الطريق المسلوك، والأذىٰ كل ما يؤذي الناس من شوك، أو حجر، أو قاذورات أو مخلفات، كل ما يؤذي الناس في طريقهم، ووضع الأذىٰ في الطريق محرم؛ لأن الطريق للمارة، فالأذىٰ يعطل المارة أو يعرضهم للخطر، مثل أن يوقف سيارته في الطريق هذا من الأذىٰ، إرسال الماء من البيت في الطريق هذا من الأذىٰ، وضع القمامات في الطريق هذا من الأذىٰ، سواء كان الطريق في البلد أو في البر، وضع الحجارة، وضع الأخشاب، وضع الحديد بطرقات الناس، حفر الحُفَر في طرقات الناس كل هذا من الأذىٰ.

فإذا جاء مسلم وأزاح هذا الأذىٰ، أخلىٰ الطريق منه، فهذا دليل علىٰ إيمانه، فوضع الأذىٰ في الطريق من شعب الكفر، وإزالة الأذىٰ عن الطريق من شعب الإيمان.

قوله: «والحياء شعبة من الإيمان»: الحياء خلق يجعله الله في الإنسان يحمله علىٰ فعل ما يجمله ويزينه ويمنعه مما يدنسه ويشينه، والحياء الذي يحمل صاحبه علىٰ الخير ويبعده عن الشر هذا محمود.

أما الحياء الذي يمنع الإنسان من فعل الخير وطلب العلم، والسؤال عما أشكل عليه، فهذا حياء مذموم؛ لأنه خجل.

....

وشعب الإيمان كثيرة كما عرفتم بضع وسبعون، وقد كتب الإمام البيهقي مؤلفًا كبيرًا بيَّن فيه شعبَ الإيمان، وله مختصر مطبوع.

ومن أدلة العلماء علىٰ أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، قولهﷺ: «**أعلاها لا إله إلا الله**». هذا يدل علىٰ القول، وقولهﷺ: «**أدناها إماطة الأذي عن الطريق**». هذا عمل، دل علىٰ أن الأعمال من الإيمان، وقولهﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**». هذا في القلب، الحياء إنما يكون في القلب، فهذا دليل علىٰ أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

أركان الإيمان

قال: وأركانه ستةٌ: أن تؤمنَ بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وتؤمِن بالقدر خيره وشرِّه [٤٣].

---

[٤٣] الإيمان يتكون من أركان وشعب فما الفرق بينهما؟

الفرق أن الأركان لابد منها، فإذا زال واحد منها زال الإيمان؛ لأن الشيء لا يقوم إلا على أركانه، فإذا فُقِد ركن من أركان الشيء لم يتحقق.

وأما الشعب فإنها مكملات، لا يزول الإيمان بزوال الشيء منها، لكنها مكملات إما واجبات أو مستحبات، فالواجبات لكمال الإيمان الواجب، والمستحبات لكمال الإيمان المستحب.

فإذا ترك المسلم شيئًا من الواجبات، أو فعل شيئًا من المحرمات، فإنه لا يزول إيمانه بالكلية عند أهل السنة والجماعة؛ ولكن يزول كماله الواجب.

فيكون ناقص الإيمان أو فاسقًا، كما لو شَرِبَ الخمر، أو سرق أو زنى، أو فعل شيئًا من الكبائر، هذا يكون فاعلًا لمحرم وكبيرة من كبائر الذنوب لكنه لا يكفر بذلك، ولا يخرج من الإيمان؛ بل يكون فاسقًا، ويقام عليه الحدُّ إن كانت المعصية ذات حدٍّ.

وكذلك من ترك واجبًا كمن ترك بر الوالدين أو صلة القرابة هذه واجبات،

....

فمن تركها نقص إيمانه، وكان عاصيًا بترك الواجب، فيكون عاصيًا إما بترك الواجب، وإما بفعل محرم، وعلىٰ كل حال لا يخرج من الإيمان؛ وإنما يكون مؤمنًا ناقص الإيمان.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين يكفرون مرتكب الكبيرة.

فالخوارج يكفرونه ويخرجونه من الدين.

والمعتزلة يخرجونه من الدين، لكن لا يدخلونه في الكفر، وإنما يقولون: هو في منزلة بين منزلتين لا هو مؤمن ولا كافر.

هذا مذهبهم وهو مذهب مبتدَع، مخالف للأدلة، ومخالف لما هو عليه أهل السنة والجماعة، والسبب في ذلك تقصيرهم في الاستدلال، حيث أخذوا أدلة الوعيد، وتركوا أدلة الوعد مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨] هذه من أدلة الوعد، دلت علىٰ أن العاصي الذي لم يصل إلىٰ حد الشرك والكفر أنه مرجو له المغفرة ومعرض للوعيد والعقوبة.

فإذا جمعت بين قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣] من أخذ بظاهرها كفَّر بالمعصية مطلقًا، وإن ردَّها إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ تبين له الحق، وأنه لا يخرج من الدين؛ ولكنه متوعد بالنار، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، فقد يأتي عليه مكفرات في الدنيا أو عذاب في القبر تكفر هذه السيئات.

والمكفرات كثيرة، يبتلي بمصائب، يبتلىٰ بعقوبات في الدنيا أو يعذب في قبره أو يؤجل إلىٰ يوم القيامة ويكون تحت المشيئة.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا هو الفرق بين الشعب والأركان، فمن ترك شيئًا من الأركان فإنه يكفر، من جحد التوحيد وأشرك بالله ﷻ هذا يكفر لأنه ترك الركن الأول، ومن جحد أحد الرسل يكفر؛ لأنه ترك ركنًا من أركان الإسلام، ومن جحد الملائكة يكفر، ويخرج من الملة، من كفر بالبعث، أو جحد الجنة أو النار، أو الصراط، أو الميزان أو شيئًا مما ثبت من أمور الآخرة فإنه بذلك يكفر؛ لأنه أنكر ركنًا من أركان الإيمان.

كذلك من جحد القدر وقال: الأمر أُنُف، ولم يسبق قدر من الله إنما هي المصادفة، والأمور بالصدفة، وليس هناك قدر كما يقوله غلاة المعتزلة فإنه يكفر أيضًا؛ لأنه جحد القدر، أما من ترك شيئًا من الشعب فإن هذا ينقص إيمانه، إما أن يكون نقصًا لكماله الواجب، أو نقصًا لكماله المستحب؛ لكنه لا يكفر بذلك.

وما دليل الزيادة والنقصان في الإيمان؟

أما دليل الزيادة: فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[الأنفال:٢] . فدل علىٰ أن الإيمان يزيد بسماع القرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة:١٢٤] .

دل علىٰ أن الإيمان يزيد بنزول القرآن وسماعه وتدبره، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾[المدثر:٣١] . فدل علىٰ أن الإيمان يزيد بالطاعات والتصديق.

....

وأما النقصان: فإن كل شيء يزيد فإنه ينقص، كل شيء قابل للزيادة فإنه قابل للنقص هذا من ناحية.

ودل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله ﷻ يوم القيامة يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»(١). فدل على أن الإيمان ينقص حتى يكون على وزن حبة من خردل في القلب.

وكذلك قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. دل على أن الإيمان ينقص حتى يكون أقرب إلى الكفر، وفي قوله: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢). دل على أن الإيمان يضعف، أي: ينقص، فالإيمان إذن يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قوله: «وأركانه ستة» أي: دعائمه التي يقوم عليها، ويفقد بفقدها، أو بفقد واحد منها ستة أركان، وهي:

الأول: أن تؤمن بالله: فالركن الأول، وهو الإيمان بالله، ويشمل أنواع التوحيد الثلاثة: الإيمان بأن الله ﷻ واحد أحد فرد صمد لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته.

الثاني: الإيمان بالملائكة: والملائكة جمع مَلَك، وأصله ملأك ثم سهل وقيل: ملك، والملائكة خلق من خلق الله في عالم الغيب، خلقهم الله لعبادته ولتنفيذ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أوامره ﷻ في ملكه، وهم أصناف كل صنف له عمل موكل به ويقوم به، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون:

فمنهم: من هو موكل بالوحي وهو جبريل عليه السلام، وهو أشرف الملائكة، وهو الروح الأمين شديد القوىٰ.

ومنهم: من هو موكل بحمل العرش: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾[غافر:٧].

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾[الحاقة:١٧].

العرش هو أعظم المخلوقات، ولا يعلم عِظَمَهُ إلا الله ﷻ يحمله الملائكة، وهذا دليل علىٰ عظم الملائكة، وعظم قواهم وخلقهم، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ﴾[فاطر:١].

فمنهم من له ستمائة جناح كجبريل -عليه الصلاة والسلام- فلا يعلم عظم خلقتهم إلا الله ﷻ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٧].

ومنهم: الموكل بالقطر والنبات وهو ميكائيل.

ومنهم: من هو موكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل ينفخ في الصور فيهلك كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ﴾ ثم نفخ فيه مرة ثانية، فتطير الأرواح في أجسادها ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر:٦٨].

تطير الأرواح من القرن، وهو الصور إلىٰ أجسادها، وتدخل فيها فيحيون بإذن الله، ثم يسيرون إلىٰ المحشر.

ومنهم: من هو موكل بقبض الأرواح عند نهاية آجالها، وهو ملك الموت، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]. ومعه أعوان من الملائكة: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. يعني: أعوان ملك الموت.

ومنهم: من هو موكل بالأجنة في الأرحام؛ قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك**». الحديث[١].

ومنهم: الموكلون بحفظ أعمال بني آدم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]. يلازمونكم بالليل والنهار.

قال ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار**»[٢]. ويجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر، ويشهدون للمصلين عند الله ﷻ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]. أي: يحضره الملائكة، ملائكة الليل وملائكة النهار.

ومنهم: من هو موكل بحفظ بني آدم من المكاره، يحفظونه من الآفات، ومن الأعداء، ومن الهوام، من السباع، ومن الأفاعي والحيات، ما دام له بقية حياة، فإن له ملائكة يحفظونه من الأخطار.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

ينام بين السباع وبين الحيات في البر، من الذي يدفع عنه الحيات والسباع والهوام؟ معه ملائكة سخرهم الله ﷻ، قال الله فيهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١]. أي: بأمر الله هؤلاء يحفظون بني آدم من المكاره والأخطار إلىٰ أن يحين الأجل، فإذا حان الأجل تخلوا عنه فوقع ما قدر الله له من الموت، أو الإصابة التي تفضي إلىٰ الموت.

ومنهم: ملائكة موكلون بتنفيذ الأوامر في أقطار السموات والأرض لا يعلمهم إلا الله ﷻ.

منهم: ملائكة يطلبون مجالس الذكر ويحضرونها، كما قال رسول الله ﷺ: **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة»**(١). ملائكة سياحون في الأرض يطلبون حلق الذكر ويشهدونها.

ولا يعلم الملائكة وأصنافهم وأوصافهم إلا الله، لكن ما جاء في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أثبتناه واعتقدناه، وما لم يذكر لنا نمسك عنه، ولا نبحث فيه؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا ندخل فيه إلا بدليل.

فالإيمان بالملائكة ركن من أركان الإسلام، فمن جحد الملائكة، وقال: لا يوجد ملائكة لأننا لا نراهم؛ هذا يكون كافرًا ملحدًا زنديقًا والعياذ بالله؛ لأنه لم يؤمن بالغيب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

....

وكذلك الذي يؤول الملائكة فيقول: الملائكة إنما هي معانٍ وليست أجسامًا، وهي الهواجس التي تأتي علىٰ الإنسان، إن كانت هواجس خير فهي ملائكة، وإن كانت هواجس شر فهي شياطين، فهذا قولٌ إلحادي والعياذ بالله، ومع الأسف هو في «تفسير المنار» نقله محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده.

وهذا كلام الفلاسفة، وهو كلام باطل، من اعتقده فهو كافر، لكن نرجو أنه نقله ولم يعتقده، ولكن نقله من غير تعقيب فيه خطورة، وهذا كلام باطل وكفر بالملائكة، نسأل الله العافية والسلامة.

فالإنسان لا يدخل بعقله وتفكيره، أو ينقل عن الفلاسفة، أو عن الزنادقة شيئًا من أمور الدين، وأمور الغيب، وإنما يعتمد علىٰ الكتاب والسنة هذا هو الواجب، ويذكر في «تفسير المنار» أنه منقول من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، والله أعلم.

وكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي فيه طوام وفيه بلايا، وإن كان فيه شيء من الخير والفوائد؛ لكن فيه من المهلكات والسموم الشيء الكثير، وهو كتاب مختلط، شره أكثر من خيره، فلا يليق بالمبتدئ أو العامي أن يطالع فيه إلا إذا كان عنده علم وتمييز بين الحق والباطل.

والملائكة ليسوا معانٍ كما يقول؛ بل الملائكة أجسام وأشكال يتشكلون بأشكال أعطاهم الله القدرة عليها، ولهذا كان جبريل عليه السلام يأتي إلىٰ النبي ﷺ في صورة رجل، فأعطاهم الله القدرة علىٰ التشكل في أشكال من أجل مصلحة بني آدم؛ لأن بني آدم لا يطيقون رؤية الملائكة علىٰ خلقتهم التي خلقهم الله عليها.

وإنما يأتون إلىٰ النبي ﷺ في صورة رجل رفقًا ببني آدم، ولا يرون علىٰ صورتهم وحقيقتهم إلا عند العذاب، قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان:٢٢]. وعند الموت يعاينهم الإنسان، يرىٰ ملائكة الموت، لكن في الدنيا، وعلىٰ قيد الحياة لا يراهم لأنه لا يطيق رؤيتهم، خلقهم الله من نور، وخلق الشياطين من نار كما في القرآن وخلق آدم من تراب، فالله علىٰ كل شيء قدير.

والكفار يعتقدون أن الملائكة بنات الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩].

الثالث: الإيمان بكتبه: وهي الكتب التي أنزلها الله علىٰ الرسل لهداية البشر، نؤمن بأنها كلام الله حقيقة، ونؤمن بما سمىٰ الله منها وما لم يسم، سمىٰ الله لنا منها: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم وصحف إبراهيم وموسىٰ فنؤمن بها.

ونؤمن بما لم يسمه الله منها، فالإيمان بالكتب السابقة يكون إيمانًا مجملًا، والإيمان بالقرآن يكون إيمانًا مفصلًا بكل ما فيه؛ لأنه كتابنا، وأنزل علىٰ نبينا محمد ﷺ، فمن جحد آية أو حرفًا من حروفه فهو كافر مرتد عن الإسلام.

وكذلك من آمن ببعض القرآن، وكفر ببعض فهو كافر، وكذلك من آمن ببعض الكتب وكفر ببعض فهو كافر، ومن قال: أنا أومن بالقرآن ولا أومن بالتوراة والإنجيل فهو كافر، أو قال: أومن بالتوراة والإنجيل، ولا أومن بالزبور الذي أنزل علىٰ داود عليه السلام فهو كافر، قال تعالىٰ: ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣]. أو أنكر صحف إبراهيم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله عز وجل، ومكذب لرسله، فهو كافر؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان.

....

الرابع: الإيمان برسله: الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم من سمىٰ الله منهم ومن لم يسم، نؤمن بهم جميعًا وأنهم رسل الله حقًّا جاءوا بالرسالة وبلغوها لأممهم.

فمن كفر بنبيٍّ واحد فهو كافر بجميع الرسل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١٥٠-١٥٢].

فالكفر بنبيٍّ واحد، أو برسول كفر بالجميع، ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]. مع أنهم كذبوا نوحًا؛ فتكذيبهم لنوح صار تكذيبًا لبقية المرسلين، وكذلك من كفر بعيسىٰ ومحمد كاليهود، أو كفر بمحمد كالنصارىٰ، فإنه كافر بالجميع، لابد من الإيمان بجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من سمىٰ الله منهم ومن لم يسم.

وقد سمىٰ الله منهم، كما في سورة الأنعام: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦]. فذكر جملة منهم في هذه الآيات، وفي آيات أخرىٰ، فنؤمن بمن سمىٰ الله منهم، ونؤمن بمن لم يسم الله منهم.

الخامس: اليوم الآخر: الإيمان باليوم الآخر، هو الركن الخامس، واليوم الآخر المراد به يوم القيامة سمي باليوم الآخر؛ لأنه بعد اليوم الأول وهو يوم الدنيا، الدنيا هي اليوم الأول والقيامة هي اليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر هو: الإيمان بما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين في القبر، وكل ما يكون بعد القبر فهو من الإيمان باليوم الآخر، وكذلك الإيمان بالبعث، والنشور، والمحشر، والحساب، ووزن الأعمال، والصراط، والميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات، والجنة والنار.

فتفاصيل ما يحصل في اليوم الآخر نؤمن بها جملة وتفصيلًا، بداية من الموت إلىٰ أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، كل ما صح من هذا نؤمن به، ولا نشك في شيء منه، فمَنْ شك في شيء منه فهو كافر مرتد عن الإسلام، كل هذا يطلق عليه اليوم الآخر وما فيه.

الركن السادس: تؤمن بالقدر خيره وشره: تؤمن بأن ما يجري في هذا الكون من خير أو شر، من كفر وإيمان، من نعمة ونقمة، من رخاء وشدة، من مرض وصحة، من حياة وموت، كل ما يجري في هذا الكون فإنه مقدر لم يكن صدفة أو يكن أمرًا مستأنفًا، أي: أنه مبتدأ لم يسبق أن قُدِّر، تؤمن بهذا كله بأنه بقضاء الله وقدره، وتؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن هذا بقضاء الله وقدره، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]. هذا هو الإيمان بالقدر.

....

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات من لم يؤمن بها كلها فليس مؤمنًا بالقدر:

المرتبة الأولىٰ: العلم: بأن الله عَلِمَ كل شيء في الأزل، علم كل ما يجري، ما كان وما يكون إلىٰ ما لا نهاية، فالله قد علمه في الأزل قبل أن يكون، وقبل أن يقع، علمه سبحانه وتعالى بعلمه القديم الأزلي الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، هذه مرتبة العلم فمن جحدها فهو كافر.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ: وهي أن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، فما يجري شيء إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ليس هناك شيء يجري وهو غير مكتوب.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد:٢٢]. يعني: اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء، قال رسول الله ﷺ: **«أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب. قال: وما أكتب قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»**(١).

فمن جحد الكتابة وقال: الله يعلم كل شيء لكنه لم يكتب في اللوح المحفوظ شيئًا، هذا كافر مرتد عن دين الإسلام.

المرتبة الثالثة: مشيئة الله النافذة: وهي أن الله سبحانه يشاء الشيء ويريده، فما من شيء يحدث إلا وقد شاءه الله وأراده كما في اللوح المحفوظ، وكما علمه سبحانه وتعالى

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

الدليل على أركان الإيمان

والدليلُ على هذه الأركان السِّتة: قولُه تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة:١٧٧] [٤٤].

يشاء كل شيء في وقته، ويريد كل شيء في وقت حدوثه، لا يقع شيء بدون مشيئة الله، أو بدون إرادة الله، فمن قال: إن الأشياء تحدث بدون أن يشاءها الله أو يريدها فهذا كافر.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق والإيجاد: الله خالق كل شيء، إذا شاءه وأراده خلقه ﷻ وأوجده، فكل شيء هو مخلوق لله ﷻ، وهو من خَلْق الله، وهو فعل العباد وكسب العباد.

فهذه المراتب الأربع لابد من الإيمان بها، وإلا لَمْ يكن الإنسان مؤمنًا بالقدر: مرتبة العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق والإيجاد، كل هذه لابد من الإيمان بها، فمن جحد شيئًا منها فإنه كافر مرتد عن دين الإسلام؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر.

[٤٤] لما ذكر الشيخ هذه الأركان ذكر دليلها من القرآن، ومن السنة؛ لأن أي شيء من أمور الدين والعبادة والعقيدة وأمور الأحكام الشرعية يحتاج إلىٰ

....

دليل، وإن لم يكن له دليل، لم يكن صحيحًا، لما ذكر الشيخ أركان الإيمان الستة ذكر دليلها من القرآن أولًا، ثم من السُّنة.

فمن القرآن: قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾.

البر: هو فعل الخير الذي يقرب من الله، ويوصل إلىٰ جنته، فكل أفعال الخير هي من البر، فالبر لفظ عام يجمع جميع أنواع الخير، وأنواع الطاعات كلها داخلة تحت مسمىٰ البر، وتحت مسمىٰ التقوىٰ.

فالبر والتقوىٰ من الأسماء العامة التي تجمع كل خصال الخير، وقوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ هذا ردٌّ علىٰ اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة المشرفة، استنكروا هذا وجحدوه مع العلم أنهم يعلمون أنه حق، لكن جحدوه من باب العناد والمكابرة والحسد للنبي ﷺ ولهذه الأمة.

يقول الله: ليس البر أن تولوا وجوهكم جهة من الجهات من غير أمر من الله؛ ولكن البر طاعة الله ﷻ، إذا أمركم بأمر وجب عليكم امتثاله. هذا هو البر، فإذا أمركم باستقبال بيت المقدس، فالبر في ذاك الوقت هو استقبال بيت المقدس؛ لأنه طاعة لله ﷻ، ثم إذا أمركم أن تستقبلوا الكعبة، فالبر هو استقبال الكعبة، فالبر يدور مع أمر الله ﷻ.

أنتم عبيد يجب عليكم الامتثال، إذا أمركم الله أن تستقبلوا جهة من الجهات وجب عليكم الامتثال، أما أن تتعصبوا لجهة معينة وتقولوا: لا يصح إلا استقبالها، فهذا معناه اتباع الهوىٰ والعصبية.

ودليل القَدر قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩][٤٥].

المرتبة الثالثة: الإحسان

تعريف الإحسان:

المرتبةُ الثالثة: الإحسان، ركنٌ واحدٌ، وهو: أن تعبد الله كأنك تراهُ، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك [٤٦].

العبد الصادق يدور مع أوامر الله حيث دارت، ولا يعترض علىٰ أمر الله؛ لأن استقبال جهة بعد نسخ استقبالها لا يكون طاعة لله ﷻ، فالعمل بالمنسوخ وترك الناسخ ليس طاعة لله ﷻ وإنما هو طاعة للهوىٰ والعصبية، فالبر متعلق بطاعة الله، فحيث وجَّهك تتوجَّه إن كنت محقًّا في عبوديتك لله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾.

[٤٥] دليل الركن السادس من أركان الإيمان: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: كل شيء خلقه الله فإنه مقدر في علمه وكتابته ومشيئته وإرادته سبحانه وتعالىٰ، وليس هو عفويًّا أو صدفيًّا، إنما هو أمر سابق في علم الله، ومكتوب في اللوح المحفوظ، وسابق في مشيئة الله وإرادته سبحانه وتعالىٰ.

[٤٦] الإحسان في اللغة: إتقان الشيء وإتمامه، مأخوذ من الحسن، وهو الجمال ضد القبح. وهو ينقسم إلىٰ أقسام:

أولًا: إحسان بين العبد وبين ربه وهذا هو المقصود.

ثانيًا: إحسان بين العبد وبين الناس.

ثالثًا: إحسان الصنعة وإتقانها، إذا صنع الإنسان شيئًا، أو عمل عملًا فإنه يجب عليه أن يتقنه ويتمه.

النوع الأول: وهو الإحسان بين العبد وربه، بيَّنه الرسولﷺ لما سأله جبريل بحضرة الصحابة، كما يأتي، فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فالإحسان بين العبد وبين ربه هو إتقانه العمل الذي كلفه الله به بأن يأتي به صحيحًا خالصًا لوجه الله ﷻ، عمل الإحسان بين العبد وربه ما توفر فيه الإخلاص لله ﷻ والمتابعة للرسول ﷺ، وقد بين النبيﷺ أن الإحسان علىٰ مرتبتين، واحدة أعلىٰ من الأخرىٰ.

الأولىٰ: أن تعبد الله كأنك تراه، بأن يبلغ بك اليقين والإيمان بالله كأنك تشاهد الله عيانًا، ليس عندك تردد، أو أي شك، بل كأن الله أمامك سبحانه وتعالى تراه عيانًا، فمن بلغ هذه المرتبة فقد بلغ غاية الإحسان، تعبد الله كأنك تراه من كمال اليقين، وكمال الإخلاص، كأنك ترىٰ الله عيانًا، والله -جل وعلا- لا يُرىٰ في الدنيا؛ وإنما يُرىٰ في الآخرة؛ ولكن تراه بقلبك حتىٰ كأنك تراه بعينيك، ولذلك يجازىٰ أهل الإحسان بالآخرة بأن يروه سبحانه وتعالى، لما عبدوه وكأنهم يرونه في الدنيا جازاهم الله بأن أفسح لهم المجال بأن يروه بأبصارهم في دار النعيم.

قال تعالىٰ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦]. الزيادة هي النظر لوجه الله، السبب أنهم أحسنوا في الدنيا فأعطاهم الله الحسنىٰ، وهي الجنة، وزادهم رؤية الله ﷻ تعبد الله كأنك تراه علىٰ المشاهدة، والمحبة والشوق إلىٰ لقائه سبحانه وتعالى، تتلذذ بطاعته، وتطمئن إلىٰ طاعته سبحانه وتعالى، تشتاق إليها، هذه طريقة المحسنين.

المرتبة الثانية: إذا لم تبلغ هذه المرتبة العظيمة، فإنك تعبده علىٰ طريقة المراقبة بأن تعلم أن الله يراك، ويعلم حالك، ويعلم ما في نفسك، فلا يليق بك أن تعصيه، وأن تخالف أمره، وهو يراك ويطلع عليك، وهذه حالة جيدة؛ ولكنها أقل من الأولىٰ، وما دمت أنك تعلم أنه يراك فإنك تحسن عبادته وتتقنها؛ لأنك تعلم أن الله يراك، ولله المثل الأعلىٰ لو كنت أمام مخلوق له منزلة وأمرك بأمر، وأنت تنفذ هذا الأمر أمامه وينظر إليك، هل يليق بك أن يقع منك إخلال بهذا الفعل؟

الحاصل: أن الإحسان علىٰ مرتبتين:

مرتبة المشاهدة القلبية: وهي أن تعبد الله كأنك تراه من شدة اليقين والإيمان، كأنك ترىٰ الله ﷻ عيانًا.

والمرتبة الثانية: وهي أقل منها، أن تعبد الله، وأنت تعلم أنه يراك ويطلع عليك، فلا تعصيه ولا تخالف أمره ﷻ.

هذه مرتبة الإحسان وهي أعلىٰ مراتب الدين، من بلغها فإنه بلغ أعلىٰ مراتب الدين، وقبلها مرتبة الإيمان، وقبلها مرتبة الإسلام.

دليل الإحسان

والدليلُ قولُه تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١] [٤٧].

فالدين دوائر:

الدائرة الأولىٰ: الإسلام، وهي واسعة حتىٰ إنه يدخل فيها المنافق ويقال له: مسلم، ويعامل معاملة المسلمين؛ لأنه استسلم في الظاهر، فهو داخل في دائرة الإسلام ويدخل فيها ضعيف الإيمان الذي ليس معه من الإيمان إلا مثقال حبة خردل.

الدائرة الثانية: وهي أضيق من الأولىٰ وأخص، دائرة الإيمان، وهذه لا يدخل فيها المنافق النفاق الاعتقادي أبدًا، وإنما يدخل فيها أهل الإيمان، وهم علىٰ قسمين: إيمان كامل، وإيمان ناقص، فيدخل فيها مؤمن فاسق أو مؤمن تقي.

الدائرة الثالثة: وهي أضيق من الثانية، دائرة الإحسان وهي كما بينها النبي ﷺ، ولا يدخل فيها إلا أهل الإيمان الكامل.

[٤٧] هذا دليل المرتبة الأولىٰ من الإحسان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ

....

﴿هُم مُّحْسِنُونَ﴾ دلت الآية أن الله مع المحسنين، وهم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن الله معهم، معية خاصة، معية النصرة والتأييد والتوفيق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ هذا دليل المرتبة الثانية، هذا دليل قوله ﷺ: «فإنه يراك».

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ أي: فوِّض أمورك.

﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾: وهو الله سبحانه وتعالى.

﴿حِينَ تَقُومُ﴾: تقوم للعبادة والصلاة.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾: يراك وأنت راكع وأنت ساجد، يراك في جميع أحوال العبادة قائمًا وراكعًا وساجدًا فهو يراك سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: السميع لأقوالك، العليم بأقوالك سبحانه وتعالى.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ هذا دليل المرتبة الثانية.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾: هذا خطاب للرسول ﷺ، في أي شأن من أمورك، من أمور العبادة أو من غيرها، جميع أفعالك وتحركاتك ما تكون في شأن من الشئون.

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: من الله؛ لأن القرآن من عند الله ﷻ أو الضمير راجع إلىٰ الشأن، أي: ومن الشأن الذي تكون فيه تلاوة القرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ هذا لجميع الأمة، للرسول ﷺ وغيره.

﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أي عمل من الأعمال خير أو شر.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ نراكم ونبصركم ونشاهدكم، هذا دليل لقوله ﷺ: «فإنه يراك».

....

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تباشرونه وتعملونه، فهذا يعطي دليلًا على المرتبة الثانية من مراتب الإحسان، وأنه -جل وعلا- شهيد على كل عامل بعمله يراه سبحانه وتعالى ويعلمه ويبصره، ولا يغيب عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

وأما الإحسان بين العبد والخلق فمعناه: بذل المعروف لهم، وكف الأذى عنهم، بأن تطعم الجائع، وتكسو العاري، وتعين بجاهك المحتاج، وتشفع لمن احتاج الشفاعة، تبذل المعروف، جميع وجوه المعروف: تكرم الضيف، تكرم الجار، لا يصدر منك إلا خير لجارك، وتكف أذاك عنه أيضًا، فلا يصدر منك أذى له ولا لغيره.

من الناس من لا يصدر منه إلا أذى، ومن الناس من يصدر منه أذى وخير، ومن الناس من لا يصدر منه إلا خير فهذا في أعلى الطبقات.

بذل الخير للناس، وكف الأذى عنهم هو الإحسان للناس: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]. حتى البهائم يجب أن تحسن إليها بأن تهيئ لها ما تحتاج إليه، وتمنع الأذى عنها، وترفق بها، هذا من الإحسان إلى البهائم.

حتى المستحق للقتل لا تعذبه بل تقتله قتلة حسنة ومريحة، من وجب عليه القصاص، ومن وجب عليه الحدُّ، فإنه ينفذ فيه برفق لا تمثيل، ولا تعذيب، ولا صبر.

قال ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح**»[1]. في القصاص أو غير ذلك مما يلزم الحد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

....

فإذا ذبحتم: أي ذبحتم الحيوانات المأكولة فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته، فتحسن حتىٰ للبهائم، وقد غفر الله للبغي من بني إسرائيل بسبب أنها سقت كلبًا رأته يلهث من العطش، فسقته فشكر الله لها فغفر الله لها ذنبها[1]. وهو ذنب عظيم، وهو البغاء؛ أي: الزنا؛ فغفر الله لها بسبب ذلك؛ لأنها أحسنت إلىٰ هذا البهيم العطشان.

فكيف بغير الكلب إذا أحسنت إلىٰ جائع من المسلمين أو حتىٰ من بني آدم، ولو كان كافرًا، إذا أحسنت إليه فإن الله -جل وعلا- يشكر لك ذلك الإحسان، قال تعالىٰ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

النوع الثالث: وهو إتقان العمل، أي عمل تعمله يجب عليك أن تتقنه، لا ليقال: إن فلانًا يحسن كذا، وقد جاء في الحديث: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»[2].

---

(١) انظر: ما أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٣٤) (٥٣١٣ و٥٣١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والدليل من السنة: حديثُ جبريلَ المشهورُ عن عُمَرَ ﵁، قال: «بينما نحنُ جلوسٌ عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر» [٤٨].

---

[٤٨] قد تقدم الكلام عن الإسلام والإيمان والإحسان، وأركان كل مرتبة، وذكر الشيخ ﵀ أدلة كل مرتبة من القرآن، وهذا كله تقدَّم وانتهىٰ.

ثم ذكر الشيخ ﵀ دليل هذه المراتب من السنة، سنة الرسول ﷺ فذكر حديث جبريل، وأنه أتىٰ النبي ﷺ وهو مع أصحابه، أتاهم في صورة رجل، وجلس إلىٰ النبي ﷺ، وسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان.

ثم سأله عن الساعة، وسأله عن أماراتها، هذا ما يسمىٰ بحديث جبريل أو حديث عمر، وهو حديث ورد من عدة طرق عن جماعة من الصحابة، فهو حديث صحيح.

وذكر الشيخ ﵀ رواية عمر بن الخطاب(١) في هذا الحديث مع اختلاف في ألفاظ الحديث في طرق أخرىٰ ولكن المعنىٰ واحد.

قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ» كان من عادتهم ﵃ أنهم يجتمعون عند النبي ﷺ في المسجد، ويتلقون عنه العلم، ويستمعون إلىٰ أجوبته ﷺ علىٰ ما يرده من الأسئلة؛ فبينما هم كذلك علىٰ عادتهم إذ دخل عليهم رجل من الباب، رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، أي: أن جبريل ﵇ تمثل في صورة هذا الرجل، ولم يأتهم بصورته الملكية؛ لأنهم لا يطيقون النظر إليه في صورته الملكية.

---

(١) أخرجها مسلم (٨)، وانظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٩٣) الحديث الثاني.

لا يُرىٰ عليه أثرُ السَّفَر ولا يعرفُه منَّا أحدٌ، حتىٰ جَلَس إلىٰ النبي ﷺ فأسندَ رُكبَتَيه إلىٰ رُكبتَيه، ووضَعَ كفَّيه علىٰ فَخِذَيه، وقال: يا محمدُ أخبرني عن الإسلام [٤٩].

---

[٤٩] لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا -أي: من الحاضرين- أحد: فهذا من العجائب، أنه ليس قادمًا من سفر حتىٰ يقال: إنه من غير أهل المدينة وهم لا يعرفونه، وهو ليس من أهل البلد حتىٰ يعرفوه، فتحيروا في شأنه، لا هو قادم، ولا هو من أهل البلد، لو كان قادمًا من سفر لظهر عليه أثر السفر في ثيابه، وفي لونه؛ لأن المسافر تظهر عليه آثار السفر، فلا يعرفه أحد من الحاضرين، فليس هو من أهل البلد، وليس هو قادم من سفر، فمن أين يكون هذا الرجل؟ هذا الذي استغربوه.

فجلس إلىٰ النبي ﷺ: بين يديه جلوس المتعلِّم من معلِّمه.

وأسند ركبتيه إلىٰ ركبتي النبي ﷺ: أي: أنه قريب منه جدًّا.

ووضع يديه علىٰ فخذيه: أي: فخذي النبي ﷺ.

فقال يا محمد: خاطبه باسمه، ولم يقل: يا رسول الله، ولعله فعل ذلك عليه السلام من أجل أن يظن الصحابة أنه من أهل البادية؛ لأن من عادة أهل البادية أنهم يخاطبون النبي ﷺ باسمه؛ لأن أهل البداية علىٰ طبيعتهم وعادتهم، وهو زيادة في الإغراب والتعمية حتىٰ لا يعرفوه.

قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، أي: اشرح لي معنىٰ الإسلام.

قال: **أن تشهدَ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاةَ، وتصومَ رمضان، وتَحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلًا**. فقال: صدقت. فعجبنا له يسألُهُ ويُصَدِّقُهُ [٥٠].

قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: **أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه**. قال: صدقت [٥١].

---

[٥٠] قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**».

ذكر له النبي ﷺ أركان الإسلام، التي لابد منها، والتي إن تحققت ووُجِدت تحقق الإسلام، وما زاد عليها من الأمور الأخرى فهي مكملات.

فالرسول ﷺ اقتصر على بيان أركان الإسلام؛ لأن الجواب كلما كان مختصرًا كان أسهل على المتعلِّم والسامع، وسهل عليه حفظه ووعيه، بينما لو طوِّل الجوابُ تشعب على الحاضرين، وربما أن أكثرهم لا يستوعبه، فهذا دليل على أن المسئول ينبغي أن يتوخَّى الاختصار مهما استطاع، ويقتصر على الشيء الضروري، وإلا فالإسلام أكثر من ذلك. هذه أركانه ودعائمه التي يقوم عليها.

قال: «**صدقت**»: هذه عجيبة ثانية.

قال: «فعجبنا له يسأله ويصدقه». فدل على أنه عالـمٌ، وأنه لا يسأل سؤال جاهل، وإنما يسأل وهو عالـم، بدليل أنه قال: صدقت، فدل على أنه عالـم، فلماذا يسأل؟!

[٥١] قال: «**أخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». فذكر له ﷺ أركان الإيمان الستة بعدما ذكر له أركان الإسلام.

قال: أخبرني عن الإحسان. قال: **أن تعبُدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراهُ، فإنَّه يراك**. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: **ما المسئول عنها بأعلَمَ من السائل** [٥٢].

والإسلام والإيمان إذا ذكرا جميعًا فالإسلام معناه الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة، أعمال القلوب، وما يقوم به من التصديق والعلم، ولابد من الإسلام والإيمان جميعًا، الإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: الأعمال الباطنة؛ لقوله ﷺ: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**»[1].

فإن ذكرا جميعًا صار لكل واحد معنًى خاصٌّ به، وإذا ذكر واحد منهما دخل فيه الآخر، إذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وإذا ذكر الإسلام وحدَه دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يصح إسلام بدون إيمان، ولا يصح إيمان بدون إسلام لابد من الاثنين، فهما متلازمان، ولهذا يقولون: إن الإسلام والإيمان من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا انفردت اجتمعت، أي: يدخل بعضها في بعض لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فسأله عن الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، وبيَّن له ﷺ أركان كلٍّ من الإسلام والإيمان.

[٥٢] قال: «**فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله**». سبق أن المحسن هو من يعبد الله على المشاهدة واليقين كأنه يرى الله، أو يعبده على المراقبة، وهو يعلم أن الله يراه فيحسن العمل؛ لأن الله مطلع عليه، فالمحسن يعبد الله إما على المشاهدة

---

(١) أخرجه أحمد (١٩/ ٣٧٤) (١٢٣٨١) من حديث أنس ﷺ.

....

في القلب وهذا أكمل، وإما على المراقبة، وأن يعلم أن الله يراه في أي مكان، أو في أي عمل يعمله، هذا هو الإحسان.

قال: «**صدقت. فأخبرني عن الساعة**». أي: عن قيام الساعة متى؟ ولما كان هذا السؤال لا يعلم أحد الجواب عنه إلا الله سبحانه وتعالى؛ لأن قيام الساعة لا يعلم تحديده إلا الله عز وجل.

نحن نعلم أنها ستقوم الساعة لا نشك في هذا، من شكَّ في هذا فهو كافر، نعلم أنها ستقوم الساعة ولابد، ولكن الوقت الذي تقوم فيه الساعة الله عز وجل لم يخبرنا عنه، ولم يبينه لنا، واستأثر بعلمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٧]. هو الذي يعلمها سبحانه.

وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام:٥٩]. ومنها وقت قيام الساعة.

قال ﷺ لجبريل: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**». أي: أنا وأنت سواء لا نعلم متى تقوم الساعة، الله -جل وعلا- لم يُطلع على هذا لا الملائكة، ولا الرسل، ولا أحدًا؛ بل استأثر بعلمها سبحانه وتعالى.

قال: فأخبرني عن أماراتها. **قال: أن تَلِدَ الأمةُ ربتَّها** [٥٣].

وأن تَرَىٰ الحُفاةَ العراةَ العالَةَ رعاءَ الشاءِ يتطاولُونَ في البُنيان [٥٤].

---

[٥٣] قال: «**أخبرني عن أماراتها**». الأمارات: جمع أمارة وهي العلامة، أما الإمارة -بالكسر- فهي: الولاية.

«**أخبرني عن أماراتها**». أي: العلامات التي تدل علىٰ قرب قيامها.

نعم؛ الساعة لها أمارات، وقد بينها الله ﷻ، منها أمارات صغيرة، ومنها علامات كبيرة، ومنها متوسطة، ومنها علامات مقاربة للساعة، تكون عند قيام الساعة، تكون قريبًا من قيامها، أما العلامات الأخرىٰ فإنها متقدمة.

العلماء يقولون: علامات الساعة علىٰ ثلاثة أنواع؛ هي: علامات صغيرة ومتقدمة، وعلامات متوسطة، وعلامات كبيرة.

العلامات الصغيرة، والعلامات المتوسطة كلها حصلت، أو حصل معظمها، أما العلامات الكبار، ظهور الدجال، ونزول عيسىٰ عليه السلام، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج فهذه تكون عند قيام الساعة وتتتابع.

قال: «**أخبرني عن أماراتها**». ولما كانت أماراتها معلومة أجابه الرسول ﷺ قال: «**أن تلد الأمة ربتها**». هذا من علامات الساعة، الأمة هي المملوكة، وربتها: سيدتها.

[٥٤] قال الشراح: معناه، والله أعلم، أنه في آخر الزمان يكثر التسري، يعني: يكثر وطء الإماء، أي: المملوكات فيلدن بنات، تكون بنتها حرة، وتكون سيدة لأمها ومالكة لها، وقيل: معناه أنه يكثر العقوق فتكون البنت كأنها سيدة لأمها.

وأن ترىٰ الحفاة: هذه علامة ثانية.

قال: فمضىٰ، فلبثنا مليًّا. فقال: يا عُمَرُ أتدري مَنِ السائلُ؟ قلت: الله ورسوله أعلمُ. قال: هذا جبريل أتاكُم يعلِّمكم أمر دينكم» [٥٥].

الحفاة: الذين ليس لهم نعال من الفقر والفاقة.

العراة: الذين ليس لهم لباس.

العالة: الفقراء.

رعاء الشاء: جمع راعٍ الذين يرعون الأغنام، هؤلاء كانوا في الأصل في البراري في بيوت ينتقلون من محل إلىٰ آخر، وفي آخر الزمان يستوطنون في المدن، ويبنون القصور، والعمارات الشاهقة، هذا من علامات الساعة، إذا تحولت البادية إلىٰ حاضرة، وصاروا يتطاولون في المباني، ويتباهون بها، وينمقونها، وهم ليس من عادتهم يتحولون إلىٰ أغنياء إلىٰ أصحاب ثروة وأصحاب مظاهر، هذا من علامات الساعة.

وكما تعلمون فإن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، كما تعلمون الآن كيف حال الناس، لقد تغيرت الأحوال وتحول الفقراء إلىٰ أغنياء أصحاب ثروات، وتحضرت البادية، وبنوا وتطاولوا في البنيان، وهذا مصداق ما قاله رسول الله ﷺ.

[٥٥] قال: «ثم خرج ولبثنا مليًّا»: يعني وقتًا قصيرًا.

فقال النبي ﷺ: «يا عمر! أتدري من السائل؟». أو «تدرون من السائل؟» وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «علي بالرجل»(١). فطلبوه فلم يقدروا عليه.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٥/ ٣٨٠) (٥٨٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وابن حبان (١٧٣)، والدارقطني (٣/ ٣٤١) (٢٧٠٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم**». هذا الذي دخل وسأل هذه الأسئلة هو جبريل ﷺ، وجاء في صورة رجل كما وصف لغرض تعليم الحاضرين أمور دينهم علىٰ طريق السؤال والجواب.

فدل هذا الحديث علىٰ مسائل عظيمة:

الأولىٰ: أن الدين ينقسم إلىٰ ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، كل مرتبة أعلىٰ من التي قبلها، وأن كل مرتبة لها أركان، أركان الإسلام، وأركان الإيمان، والإحسان ركن واحد.

الثانية: فيه التعليم بطريق السؤال والجواب، وهذه طريقة تعليمية ناجحة؛ لأنها أدعىٰ للانتباه وتلقي العلم كونه يسأل ويتهيأ ذهنه، يتطلب الجواب، ثم يلقىٰ عليه الجواب، وهو يتطلع إليه، يكون هذا أثبت.

الثالثة: في الحديث دليل علىٰ أن من سأل عن علم وهو لا يدري، عليه أن يقول: الله ورسوله أعلم، يكل العلم إلىٰ عالمه فلا يتكلم بالجواب، وهو لا يعرفه ويتخرص، هذا لا يجوز، والرسول ﷺ لما سُئل عن الساعة قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**». ولما قال للصحابة: «**أتدرون من السائل؟**». وهم لا يعرفونه. قالوا: الله ورسوله أعلم.

فدل ذلك علىٰ أن مسائل الشرع ومسائل الدين لا يجوز التخرص فيها، لأن هذا من التكلف؛ ولكن من كان عنده علم فإنه يجيب، ومن ليس عنده علم يقول: الله أعلم، ومن قال: لا أدري، فقد أجاب.

قد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أربعين مسالة فأجاب عن ست منها، وقال في الباقية: لا أدري. فقال له السائل: أنا جئت من كذا وكذا وسافرت وأتعبت راحلتي وتقول: لا أدري. قال: اركب راحلتك، واذهب إلىٰ البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكًا فقال: لا أدري. هذا ليس عيبًا أن الإنسان إذا كان لا يعرف الجواب في الأمور الشرعية أنه يقول: لا أدري ولو كان عالمًا، الرسول ﷺ قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**».

وكان ﷺ إذا سئل في بعض الأسئلة، ولم يكن عنده وحي من الله ﷻ انتظر حتىٰ ينزل الوحي من الله ﷻ ألستم تقرءون: يسألونك عن كذا، يسألونك عن كذا، قل: كذا.

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩].

فالرسول ﷺ كان إذا سئل ولم يكن عنده جواب ينتظر حتىٰ ينزل عليه الوحي من الله، وكذلك غيره من باب أولىٰ، ينتظر حتىٰ يسأل غيره، أو يبحث عن المسألة في كتب أهل العلم؛ ليتحصل علىٰ جواب، أما أن يستعجل فهذا فيه خطورة عظيمة، وفيه سوء أدب مع الله ﷻ؛ لأن الذي يجيب، يجيب عن شرع الله، يقول: الله أحل كذا أو حرم كذا، أو شرع كذا، فالأمر فيه خطورة جدًّا.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل علىٰ آداب المتعلم، جبريل، وهو سيد الملائكة يجلس بين يدي الرسول ﷺ، وهو يسند ركبتيه إلىٰ ركبتَي الرسول ﷺ، ويضع يديه علىٰ فخذيه يسأل بأدب، هذا من أجل أن يعلم الناس كيف يتأدبون مع العلماء.

هذا بعض ما يدل عليه الحديث وفيه:

مسألة خامسة: وهي بيان بعض علامات الساعة، ذكر علامتين: أن تلد الأمة ربتها، وبعض العلماء يقول: معنىٰ أن تلد الأمة ربتها أنه يكثر العقوق في آخر الزمان حتىٰ تصبح البنت كأنها سيدة علىٰ والدتها تأمرها وتنهاها وتغلظ عليها.

الأصل الثالث: معرفة نبينا محمد ﷺ

اسمه، ونسبه، ونشأته:

الأصل الثالث: معرفةُ نبيِّكُم محمدﷺ [٥٦].

---

[٥٦] **قوله:** «الأصل الثالث»: أي من الأصول الثلاثة، لأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في أول الرسالة أنه يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة معرفة هذه الأصول الثلاثة، وهي: معرفة الله، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة نبيه محمدﷺ بالأدلة.

أما الأصل الأول والثاني؛ فقد تقدم شرحهما وبيان أدلتهما.

الأصل الثالث: وهو معرفة النبيﷺ، لما كان النبيﷺ واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه ورسالته، وجب معرفته -عليه الصلاة والسلام-، وإلا كيف تتبع شخصًا لا تعرفه فلابد أن تعرفه من حيث الاسم، ومن حيث البلد الذي ولد ونشأ فيه، والبلد الذي هاجر إليه، وتعرف مدة عمره -عليه الصلاة والسلام-.

وأقسام عمره -عليه الصلاة والسلام-، وأقسام المدة التي أقامها في هذه الدنيا، تعرفها أيضًا قبل النبوة وبعدها، وقبل الهجرة وبعد الهجرة، تعرف كيف ابتدئ بالوحي -عليه الصلاة والسلام- ومتىٰ ابتدئ بالوحي، وما هي الآية التي تدل علىٰ نبوته، والآية التي تدل علىٰ رسالته، تأتي بالآيات التي تدل علىٰ نبوته، والآيات التي تدل علىٰ إرساله، فلابد أن تعرف هذا، تعرف نسبه من أي قبيلة؛

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من قريش، وقريشٌ من العرب، والعرَبُ من ذُرِّيَّة إسماعيل بن إبراهيمَ الخليل -عليه وعلىٰ نبيِّنا أفضلُ الصلاة والسلام- [٥٧].

لأن العرب قبائل، وهو عربي بلا شك، فلابد من معرفة هذه الأشياء عن الرسول ﷺ بأن تدرس الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه المسائل، وتنظر في سيرة الرسول ﷺ ودعوته لأجل أن تعرف هذه الأمور عن نبيك الذي أنت مأمور باتباعه، والاقتداء به.

[٥٧] هذا اسمه، ونسبه، اسمه محمد -عليه الصلاة والسلام-، وله أسماء غير محمد، لكن أشهر أسمائه محمد، قد ذكر الله ذلك في القرآن في عدة آيات: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩].

وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤].

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:٢]. فذكر الله اسمه محمدًا في عدة آيات.

ومن أسمائه أحمد، قد ذكره الله في قوله في بشارة المسيح ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦].

فهو محمد، وأحمد، ومعنىٰ ذلك أنه كثير المحامد -عليه الصلاة والسلام-، وكثير الصفات التي يُحمد عليها، ومن أسمائه نبي الرحمة، ونبي الملحمة، يعني الجهاد في سبيل الله، والحاشر، والعاقب -عليه الصلاة والسلام- الذي يحشر الناس بعد بعثته؛ لأنه آخر الرسل ﷺ، فليس بعده إلا قيام الساعة.

....

فبعد رسالته تقوم الساعة، ويُحشر الناس للجزاء والحساب، ومن أراد أن يلم بهذه الأمور فليرجع إلىٰ كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام علىٰ خير الأنام» للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأما نسبه: فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب.

وهو من قبيلة قريش التي هي أشرف القبائل، وقريش من ذرية إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، والعرب علىٰ قسمين في المشهور:

العرب العاربة، وهم: القحطانية.

والعرب المستعربة، وهم: العدنانية من ذرية إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ. سموا بالمستعربة؛ لأنهم تعلموا العربية من العرب العاربة، لما جاءت جُرْهم، ونزلوا في مكة عند هاجر أم إسماعيل، وابنها إسماعيل -وهو صغير-، لما وجدوا ماء زمزم نزلوا، واصطلحوا مع هاجر أن ينزلوا عندها، وأن تسمح لهم أن يستقوا من الماء.

فإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان رضيعًا في ذلك الوقت، ثم إنه تربىٰ ونشأ وأخذ العربية عن جُرْهُم وهي من العرب العاربة، وتزوج من جُرهم، وجاءه ذرية تعلموا العربية، ونشئوا مع العرب، فصاروا عربًا مستعربة وهي العدنانية.

أما العاربة، فهم القحطانية، أصلها من اليمن.

وبعض العلماء يقول: العرب العاربة علىٰ قسمين: عرب بائدة وعرب باقية، العرب البائدة هم الذين هلكوا، وهم قوم نوح، وعاد، وثمود، وشعيب.

أما العرب الباقية فهم الذين ينقسمون إلىٰ عرب عاربة، وعرب مستعربة، وهي العرب الباقية، والنبي من بني هاشم، وهاشم من ذرية إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، واسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

وعبد المطلب ليس هذا اسمه، اسمه شيبة، ولكن سمي عبد المطلب؛ لأن عمه المطلب بن عبد مناف جاء به من المدينة وهو صغير من عند أخواله بني النجار، فلما رآه الناس أسود من السفر ظنوا أنه عبد مملوك للمطلب، فقالوا: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعبد مناف له أربعة أولاد: هاشم جد الرسول ﷺ، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل.

بنو هاشم يقال لهم: الهاشميون، وبنو المطلب يقال لهم: المطلبيون، وأما عبد شمس، فمنهم عثمان رضي الله عنه، ومنهم بنو أمية هؤلاء من بني عبد شمس.

ونوفل كذلك له ذرية منهم: جبير بن مطعم، وحكيم بن حزام.

وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- له إسماعيل وهو الأكبر، وهو جد العرب العدنانية، وإسحاق وهو جد بني إسرائيل، وجميع الأنبياء كلهم من ذرية إسحاق إلا نبينا -عليه الصلاة والسلام-، فهو من ذرية إسماعيل خاتم النبيين.

أما مولده: فقد ولد ﷺ عام الفيل، وهو العام الذي جاء فيه أبرهة ملك اليمن، انتدبه ملك الحبشة؛ ليهدم الكعبة، ومعه فيل عظيم، فلما وصل إلىٰ مكان يقال له: المغمس، ولم يبق إلا أن يدخل مكة، ويهدم الكعبة، وتفرق أهل مكة، وصعدوا الجبال؛ لأنهم لا طاقة لهم به، فأراد أن يتوجه إلىٰ الكعبة، فانحبس الفيل، وأبىٰ أن يقوم من الأرض، حبسه الله.

وله من العُمُر ثلاثٌ وستُّونَ سنة، أربُعونَ قبلَ النُّبُوةِ، وثلاثٌ وعشرونَ نبيًّا رسُولًا، نُبِّئَ بـ: ﴿اقْرَأْ﴾ [٥٨].

فإذا وجهه إلىٰ غير جهة مكة قام وهرول، وإذا وجهه إلىٰ جهة مكة انحبس، ولم يستطع المشي، وبينما هم كذلك رأوا فرقان طير من قِبَل البحر معها حجارة، كل طائر معه حجران: حجر في منقاره وحجر في رجليه، فرمتهم فصارت الحصاة تضرب هامة الرجل فتخرج من دبره وتشقه نصفين، فأهلكهم الله ﷻ.

فأنزل الله في ذلك يذكِّر قريشًا سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ من جهنم، والعياذ بالله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل:١-٥]. أصبحوا مثل التبن الذي أكلته الدواب وراثته.

هذه قصة الفيل حمىٰ الله بيته الحرام، وأهلك هذا الجبار، وفي هذا العام ولد محمد ﷺ، وظهر مع ولادته آيات، حيث ظهر معه نور أشرقت له قصور الشام، وفي ليلة ولادته ارتجت الأصنام، وارتج إيوان كسرىٰ، وسقطت منه شرفات، في ليلة ولادة النبي ﷺ هذه إرهاصات لبعثة النبي ﷺ، والجن والشياطين حصل عندهم ضجة في الليلة العظيمة.

ولد في مكان يقال له: شعب علىٰ مقربة من الكعبة، ولد في مكة لكن لا يوجد تحديد ثابت لموضع الدار.

[٥٨] فهو ولد في مكة ﷺ، واستُرضع في بني سعد عند حليمة السعدية، ومات عبد الله أبوه، وهو في بطن أمه، ثم ماتت أمه بعد ولادته بقليل، فحضنته أم أيمن الحبشية التي ورثها عن أبيه، وصار في كفالة جده عبد المطلب.

ثم مات عبد المطلب، وانتقلت كفالته إلىٰ عمه أبي طالب، وعاشﷺ أربعين سنة قبل النبوة معروفًا بالأمانة، والصدق، والكرم، وتجنب عبادة الأصنام، وتجنب شرب الخمر، ما كان يعمل ما يعمله أهل الجاهلية؛ بل كان -عليه الصلاة والسلام- يخرج إلىٰ غار حراء، ويتعبد فيه الأيام ذات العدد، يعبد الله علىٰ ملة إبراهيم علىٰ التوحيد.

ثم لما بلغ الأربعين من عمره -عليه الصلاة والسلام- نزل عليه الوحي بأن جاءه جبريل وهو في غار حراء وقال له: «اقرأ، قال: **ما أنا بقارئ**. -أي: لا أحسن القراءة-، فضمه ضمة شديدة ثم أرسله وقال: اقرأ. قال: **ما أنا بقارئ**، ثم ضمه مرة ثانية، ثم أرسله وقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. فقال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:١-٢]».

هذه هي نبوته ﷺ نبأه الله باقرأ، أي: جعله نبيًّا بذلك، ثم ذهب إلىٰ بيته يرتجف من الخوف؛ لأنه لقي شيئًا ما كان يعرفه من قبل، أمرًا هائلًا، فوجد زوجه خديجة رضي الله عنها فغطته وهدأته، وقالت له: كلا، والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتعين علىٰ نوائب الدهر، فوطأته وذهبت به إلىٰ ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تحنث وقرأ في الكتب السابقة تعبدًا لله عز وجل فلما أخبره بما رأىٰ قال: هذا هو الناموس الذي كان ينزل علىٰ موسىٰ يعني: جبريل -عليه الصلاة والسلام-.

نزول الوحي عليه

وأرسِلَ بـ: «المدثِّر»، وبلدُهُ مكَّة، وهاجَرَ إلىٰ المدينة، بعثه الله بالنِّذارة عن الشِّرك، ويدعو إلىٰ التوحيد، والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر:١-٧] [٥٩].

---

[٥٩] ثم نزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ هذا هو الإرسال، وهذا معنىٰ قول الشيخ: نبأه: اقرأ، وأرسله: بالمدثر.

والفرق بين النبي والرسول: أن النبي هو من أوحي إليه بشرع، ولم يؤمر بتبليغه، والرسول هو من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، وتوضيح ذلك أن الرسول تنزل عليه شريعة وكتاب، فهو نُبئ بـ: اقرأ، وأُرسل: بـ: المدثر علىٰ رأس الأربعين، وكذلك الأنبياء، والنبي يبعث بشرع من قبله وكتاب من قبله، ويوحىٰ إليه ببعض المسائل كأنبياء بني إسرائيل من بعد موسىٰ.

والمدثر معناه: الملتحف لأنه ﷺ أصابه شيء من الفزع فقال: «دثروني دثروني»، أي: غطوني، فأنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي: عظِّمْهُ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ أي: طهِّرْ أعمالك من الشرك، فالأعمال تسمىٰ الثياب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾[الأعراف:٢٦] . سمَّىٰ التقوىٰ لباسًا.

....

﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾: الرجز معناه الأصنام.

﴿فَٱهۡجُرۡ﴾ أي: اتركها وابتعد عنها.

فبعثه الله علىٰ رأس الأربعين، وبقي في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلىٰ التوحيد وترك عبادة الأصنام، وحصلت مداولات بينه وبين المشركين، حصل عليه أذىٰ وعلىٰ من آمن به واتبعه، وحصلت مضايقات من المشركين في خلال ثلاث عشرة سنة، وقبل الهجرة بثلاث سنوات أسري به إلىٰ بيت المقدس، وعُرج به إلىٰ السماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس، فصلَّىٰ بمكة ثلاث سنين، ثم تآمرت قريش علىٰ قتله وعلىٰ الفتك به، فأذن الله له بالهجرة إلىٰ المدينة، فهاجر إلىٰ المدينة، بعدما التقىٰ بالأنصار في بيعة العقبة الأولىٰ، وبيعة العقبة الثانية.

هاجر إلىٰ المدينة، وأقام بها عشر سنوات، فالمجموع ثلاث وعشرون سنة، بعد النبوة عاش ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة ثلاث عشرة في مكة يؤسس دعوة التوحيد، وعشر سنوات في المدينة، ثم توفاه الله علىٰ رأس الثالثة والستين من عمره -عليه الصلاة والسلام-، فمدة عمره في الرسالة ثلاث وعشرون سنة، وهذه البركة التي أنزلها الله ﷻ عليه، وهذا العلم الغزير، وهذا الجهاد، وهذا التمكين في هذه المدة الوجيزة ثلاث وعشرين سنة هذا من آيات الله ﷾، ومن بركات هذا النبي ﷺ، وبركات دعوته، وبركات الوحي الذي أنزل إليه، وقبل هذا كله بإعانة الله ﷻ ، وهو الذي أعانه، وهو الذي حماه وأيده ونصره حتىٰ بلغت دعوته المشارق والمغارب، والحمد لله رب العالمين.

....

قوله: «بعثة الله بالنذارة عن الشرك، ويدعو إلىٰ التوحيد»: هذه دعوتهﷺ، النذارة عن الشرك، والدعوة إلىٰ التوحيد، وهذا الذي يجب أن يسير عليه الدعاة في دعوتهم أن يركزوا علىٰ الإنذار عن الشرك والدعوة إلىٰ التوحيد قبل كل شيء، وإلا لم تكن دعوتهم علىٰ منهج الرسولﷺ.

الرسول ﷺ بعثه الله بالنذارة عن الشرك والدعوة إلىٰ التوحيد، فلابد من تأصيل هذا الشيء أولًا ثم بعد ذلك يتجه إلىٰ بقية الأمور؛ لأنها لا تصلح الأمور إلا بوجود التوحيد، لو أن الناس تركوا الزنا، والخمر، والسرقة، واتصفوا بكل فضيلة من الأعمال والأخلاق لكنهم لم يتركوا الشرك فلا فائدة من هذه الأمور، ولا تنفعهم، بينما لو سَلِمَ الإنسان من الشرك وعنده كبائر دون الشرك فهو مرجو أن يغفر الله له أو يعذب بقدر ذنوبه؛ ولكن مآله إلىٰ الجنة؛ لأنه موحد.

فالتوحيد هو الأصل والأساس، ولا نجاة إلا بوجود التوحيد أولًا؛ ولذلك يجب التركيز عليه، والعناية به دائمًا وأبدًا، ودعوة الناس إليه، وتعليم الناس إياه، وأن يبين لهم ما معنىٰ التوحيد، وما معنىٰ الشرك، لابد أن يعرف المسلم هذا الأمر ويتحقق منه، ويتفقد نفسه حتىٰ لا يقع في شيء من الشرك أو يخل بالتوحيد، فلابد من هذا الأمر، ولابد أن تقوم الدعوة علىٰ هذا الأساس.

مدة الدعوة في مكة

أخذَ علىٰ هذا عشر سنين يدعُو إلىٰ التوحيد [٦٠].

---

[٦٠] قوله: «أخذ علىٰ هذا عشر سنين يدعو إلىٰ التوحيد». أي: أخذ علىٰ دعوة الناس إلىٰ التوحيد والإنذار عن الشرك عشر سنين في مكة، وهو يدعو إلىٰ التوحيد، وينهىٰ عن الشرك؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، والحكمة أن الله بعثه في مكة؛ لأن مكة هي أم القرىٰ التي ترجع إليها القرىٰ، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩]. والأم هي المرجع الذي يُرجع إليه، والأصل الذي يُرجع إليه، هذا هو الأم.

قوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ أُمُّ﴾ [آل عمران:٧]. أي: الأصل الذي ترد إليه الآيات المتشابهات.

كذلك مكة -شرفها الله- هي الأصل الذي يرجع إليه أهل الأرض، والمسلمون في أقطار الأرض يرجعون إلىٰ مكة، فهي أم القرىٰ؛ بمعنىٰ هي المرجع، ولذلك بعث الله نبيهﷺ من مكة؛ لأنها أم القرىٰ، ومكث فيها ثلاث عشرة سنة، ينهىٰ أهل مكة عن الشرك، ويأمرهم بالتوحيد؛ لأن أهل مكة هم القدوة لغيرهم، ولهذا يجب أن تبقىٰ مكة إلىٰ قيام الساعة دارًا للتوحيد، ومنارًا للدعوة إلىٰ الله، وأن يبعد عنها كل ما يخالف ذلك، يبعد عنها الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس ينظرون إليها دائمًا وأبدًا، ما يفعل فيها ينتشر في العالم، فإن كان ما يفعل فيها خير انتشر الخير، وإن كان علىٰ عكس ذلك انتشر الشر.

الإسراء والمعراج

وبعدَ العشر عُرِجَ به إلىٰ السماء، وفُرضت عليه الصلوات الخمس، وصلَّىٰ في مكَّة ثلاثَ سنين [٦١].

فيجب أن تطهر مكة دائمًا وأبدًا، ولهذا يقول -جل وعلا-: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥]. فيجب أن تطهر مكة من كل ما يخالف الإسلام حتىٰ يصدر منها الدين والدعوة إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن الله بعث نبيه فيها، وبدأ دعوته فيها -عليه الصلاة والسلام-، مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة منها عشر يدعو إلىٰ التوحيد، وينهىٰ عن الشرك، ولم يؤمر بشيء غير ذلك، لم يؤمر بصلاة، ولا زكاة، ولا صيام، ولا حج؛ بل كانت دعوته مقتصرة علىٰ التحذير من الشرك والأمر بالتوحيد، يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

[٦١] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبعد العشر عرج به إلىٰ السماء**» بقي ﷺ عشر سنين علىٰ هذا ينهىٰ عن الشرك، ويدعو إلىٰ التوحيد، يؤسس هذا الأساس، ثم في السنة الحادية عشرة أسري به من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ.

....

قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]. بينما هو ﷺ نائم في بيت أم هانئ جاءه جبريل -عليه الصلاة والسلام-، ومعه دابة يقال لها: البراق، أقل من البغل، وفوق الحمار، ويقع خطوه عند مد بصره، فأُركب عليه السلام عليها، وذُهب به إلىٰ بيت المقدس في الليل.

أسرىٰ، من السرىٰ، وهو السير بالليل، وهذا من خواصه ﷺ ومن معجزاته -عليه الصلاة والسلام-، فالتقىٰ هناك مع الأنبياء في بيت المقدس، ثم إنه ﷺ عُرج إلىٰ السماء يعني رُفع من بيت المقدس إلىٰ السماء بصحبة جبريل، ومعنىٰ العروج: الصعود.

فأسري به من مكة إلىٰ بيت المقدس، وعُرج به من بيت المقدس إلىٰ السماء، يعني صَعِدَ به جبريل عليه السلام ومر بأهل السموات، كل سماء يستفتح جبريل فيفتح له، ثم انتهىٰ إلىٰ السماء السابعة.

ثم صعد فوق السموات إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وعندها كلمه الله من وحيه بما شاء ففرض عليه الصلوات الخمس، فرضها في اليوم والليلة خمسين صلاة؛ ولكن موسىٰ عليه السلام أشار علىٰ نبينا محمد ﷺ بأن يسأل ربه التخفيف، فإن أمته لا تطيق خمسين صلاة في اليوم والليلة، فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه يسأله التخفيف حتىٰ انتهت إلىٰ خمس.

فقال الله عز وجل، كما في حديث الإسراء والمعراج: **«أمضيت فريضتي، وخففْتُ عن عبادي، وأجزي الحسنة عشرًا»**[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة، وهو حديث طويل فيه قصة المعراج.

وفي رواية أنس عن أبي ذر فقال: «هي خمس، وهي خمسون»[1]. أي: خمس في العمل، وخمسون في الميزان.

خمس صلوات في اليوم والليلة تعادل خمسين صلاة في الميزان؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فالصلاة الواحدة عن عشر صلوات، فالإسراء ذُكر أول سورة سبحان، سورة بني إسرائيل، والمعراج ذكر أول سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٣-١٨]. هذا في المعراج.

ثم إنه نزل من السماء إلىٰ بيت المقدس، ثم إنه رجع إلىٰ مكة في ليلته، فلما أصبح وأخبر الناس بذلك، المؤمنون زاد إيمانهم، وأما الكفار فزاد شرهم، وفرحوا بهذا، وراحوا يشهرون به، كيف يزعم صاحبكم أنه ذهب إلىٰ بيت المقدس ورجع منه في ليلة واحدة، ونحن نضرب أكباد الإبل إليها شهرًا ذهابًا، وشهرًا إيابًا، يقيسون قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فكان الإسراء والمعراج امتحانًا من الله ﷻ للناس، المشركون زاد تندرهم وشرهم وتنقصهم للرسول ﷺ، والمؤمنون زاد إيمانهم.

فلهذا لما قال المشركون لأبي بكر الصديق ﷺ: انظر إلىٰ صاحبك ماذا قال؟

قال: وماذا قال؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩) من حديث أنس، عن أبي ذر رضي الله عنهما.

قالوا: يزعم أنه ذُهب به إلىٰ بيت المقدس وعُرِجَ به إلىٰ السماء، وإنه جاء في ليلة واحدة.

قال أبو بكر الصديق: إن كان قاله فهو كما قال. لقد صدق.

قالوا: كيف ذلك؟

قال: أنا أصدقه فيما هو أعظم من ذلك، أنا أصدقه في خبر السماء ينزل عليه، فكيف لا أصدقه في الإسراء إلىٰ بيت المقدس؟![1].

وهذا بقدرة الله عز وجل لا بقدرة الرسول ﷺ، إنما هو بقدرة الله عز وجل، وهذا من معجزات هذا الرسول ﷺ، ومن كرامته عند ربه عز وجل.

ولابد من الاعتقاد بأنه ﷺ أُسري وعُرج بروحه وجسمه معًا يقظة لا منامًا؛ لأن بعض الناس يقولون: أُسري بروحه، وأما جسده فلم يبرح مكة، وإنما أسري وعرج بروحه، وهذا كلام باطل؛ بل إنه أسري بروحه وجسده -عليه الصلاة والسلام-، وحُمل علىٰ البراق، وكان ذلك يقظة لا منامًا إذ لو كان بروحه فقط، أو كان منامًا فما الفرق بينه وبين الرؤيا، والله -جل وعلا- يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١].

فالعبد يطلق علىٰ الروح والبدن جميعًا، لا يطلق علىٰ الروح وحدَها أنها عبد، ولا يطلق علىٰ البدن وحدَه أنه عبد، لا يطلق إلا علىٰ مجموع الروح والبدن، لم يقل: سبحان الذي أسرىٰ بروح عبده؛ بل قال: أسرىٰ بعبده، والعبد هو مجموع الروح والبدن، والله -جل وعلا- لا يعجزه شيء، وهو القادر علىٰ كل شيء.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٥) (٤٤٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

....

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلىٰ في مكة ثلاث سنين**».

وكان يصليها ركعتين ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت الرباعية إلىٰ أربع إلا الفجر، فإنها تطول فيها القراءة فبقيت ركعتين كما هي، وإلا المغرب فإنه ثلاث من أول ما فرضت؛ لأنها وتر النهار، أما الظهر والعصر والعشاء، وكانت في مكة ركعتين ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت أربع ركعات.

كما في الحديث: «أول ما فرضت الصلاة ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت صلاة الحضر، وبقيت صلاة السفر»[(١)]. هذا بإجماع أهل العلم، أن الصلاة فرضت بمكة، وأن النبي ﷺ صلاها بمكة، لكن اختلفوا: هل هي فرضت قبل الهجرة بثلاث سنين؟

هذا هو الراجح، كما ذكر الشيخ هنا، وقيل: قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: قبل الهجرة بسنة واحدة، وقيل: بسنة ونصف؛ لكن الراجح هو ما ذكره الشيخ أنها قبل الهجرة بثلاث سنين.

وهل فرض مع الصلاة شيء آخر من أركان الإسلام؟ هذا محل خلاف بين العلماء، منهم من يرىٰ أن الزكاة فرضت أيضًا بمكة؛ وإنما بينت أنصبتها ومقاديرها وأهل الزكاة في المدينة، أما أصل فرضيتها فهو في مكة.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]. والمراد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الهجرة إلى المدينة

وبعدَها أُمِرَ بالهجرة إلىٰ المدينة [٦٢].

بـ﴿حَقَّهُۥ﴾ هنا: الزكاة، والسورة مكية كلها، وكذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥].

أيضًا هذه السورة مكية، والمراد بالحق المعلوم: الزكاة، ففرض أصلها في مكة، لكن بينت تفاصيلها بالمدينة هذا قول.

والقول الثاني: وهو الذي يظهر من كلام الشيخ هنا أن الزكاة إنما فرضت في المدينة، ولم يفرض في مكة غير الركن الأول وهو التوحيد، والركن الثاني، وهو الصلاة، هذا ظاهر كلام الشيخ.

[٦٢] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وبعدها أمر بالهجرة إلىٰ المدينة»**. لما اشتد أذىٰ قريش، وزاد شرهم بالصد عن سبيل الله، ومضايقة المسلمين، وتعذيب من ليس له جماعة تحميه من مستضعفي المسلمين، أذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمسلمين بالهجرة إلىٰ الحبشة، الهجرة الأولىٰ؛ لأن فيها ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده، وكان نصرانيًا؛ ولكنه كان عادلًا، هاجر منهم نفر كثير، فلما علمت قريش بهجرتهم إلىٰ الحبشة، أرسلوا في طلبهم مندوبين من دهاة قريش أحدهما: عمرو بن العاص، ومعهما الهدايا للنجاشي، وقالوا: إن هؤلاء فروا منا، وهم أقاربنا نريد أن يرجعوا، وإنهم أشرار، لا يفسدون في بلدك ... إلخ.

....

وأعطوه الهدايا التي معهم ليغروه؛ ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ استدعىٰ المهاجرين، وسمع منهم، وخيَّرهم فاختاروا البقاء في الحبشة، فرجع المندوبان خائبين، وبقي من بقي في الحبشة من المهاجرين.

ثم إن الله مَنَّ علىٰ النجاشي فأسلم، وحَسُنَ إسلامه، فلما توفي صَلَّىٰ عليه الرسولﷺ هو وأصحابه صلاةَ الغائب، فكان في هجرتهم إليه خير له أيضًا هداه الله بسببهم فدخل في الإسلام.

ثم لقي النبيﷺ نفرًا من الأنصار في منًىٰ في موسم الحج، وكان النبيﷺ يعرض نفسه علىٰ القبائل في موسم الحج، يذهب إلىٰ منازل العرب في منىٰ ويدعوهم إلىٰ الله، وصادف أن لقي أناسًا من الأنصار فدعاهم إلىٰ الله فعرض عليهم ما عنده، فقبلوا من الرسولﷺ دعوته، وبايعوه علىٰ الإسلام، ورجعوا إلىٰ قومهم من موسم الحج فدعوهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ، فوافىٰ في الموسم الذي بعده أكثر من الموسم الأول.

جاء ناس من الأنصار وبايعوا النبيﷺ بيعة العقبة الثانية، أي: عند جمرة العقبة، بايعوه علىٰ الإسلام، وعلىٰ أن يناصروه إذا هاجر إليهم، وأن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم.

فعند ذلك -أي: بعد هذه البيعة المباركة- أمر النبي من كان في مكة من المسلمين بالهجرة إلىٰ المدينة، وهاجر من هاجر إلىٰ المدينة، وبقي الرسول وبعض أصحابه، ثم إن الله أذن لنبيهﷺبالهجرة.

فلما علمت قريش بهجرة الصحابة إلىٰ المدينة، وعلموا بالبيعة التي حصلت بينه وبين الأنصار، خافوا أن يلحق رسول الله ﷺ بأصحابه في المدينة، ويتكون له قوة، وتكون لهم منعة.

ففي هذه الليلة التي أراد النبي ﷺ أن يخرج إلىٰ الهجرة جاءوا وحاصروا البيت، ووقفوا عند الباب معهم أسلحتهم يريدون الفتك برسول الله ﷺ، فأخبر الله نبيه ﷺ، فأمر النبي ﷺ عليًّا أن ينام علىٰ فراشه حتىٰ يراه المشركون، ويظنون أنه النبي ﷺ، فنام علي رضي الله عنه علىٰ فراش رسول الله ﷺ فتغطىٰ بغطاء الرسول ﷺ، فصار المشركون ينتظرون خروجه علىٰ أنه الرسول ﷺ وخرج النبي ﷺ من بينهم، وهم لا يشعرون.

أعمىٰ الله بصائرهم عنه، وأخذ ترابًا وذرَّه علىٰ رءوسهم، وخرج من بينهم، وذهب إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه، وخرجا فذهبا إلىٰ غار ثور، فاختفيا فيه ثلاثة أيام، وقريش تطلب من الناس العثور عليه بأي وسيلة، حيًّا أو ميتًا.

فلم يئسوا من العثور عليه بعد البحث والتنقيب، أغروا بالجوائز من يأتي به ﷺ حيًّا أو ميتًا، فلما أيسوا خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وركبوا الرواحل، وذهبوا إلىٰ المدينة.

والهجرة: الانتقالُ من بلد الشِّرك إلىٰ بلد الإسلام [٦٣].

---

[٦٣] الهجرة في اللغة: ترك الشيء.

أما الهجرة في الشرع: -فهي كما عرفها الشيخ-: الانتقال من بلد الكفر إلىٰ بلد الإسلام، وهذه هي الهجرة الشرعية، والهجرة عمل جليل قرنه الله بالجهاد في كثير من الآيات.

لما هاجر النبي ﷺ إلىٰ المدينة جاء المهاجرون الذين كانوا في الحبشة إلىٰ المدينة، واجتمع المسلمون في المدينة، والحمد لله، وتكونت للمسلمين دولة في المدينة من المهاجرين والأنصار، ومن يسلم يأتي إليهم، عند ذلك شرع الله بقية شرائع الدين، ففرض علىٰ نبيه ﷺ الصيام، والزكاة في السنة الثانية من الهجرة، وفرض عليه الحج في السنة التاسعة من الهجرة علىٰ الصحيح، وبذلك تكاملت أركان الإسلام، أولها الشهادتان، وآخرها الحج إلىٰ بيت الله الحرام.

والحاصل من هذا: أن نعلم أن التوحيد هو المهمة الأولىٰ في الدعوة إلىٰ الله ﷻ، وأنه يبدأ الداعية به قبل أن يبدأ بالصلاة، والصيام، أو الزكاة، أو الحج؛ لأن النبي ﷺ بقي عشر سنين يدعو إلىٰ التوحيد، وينهىٰ عن الشرك، ولم يؤمر بصلاة، ولم يؤمر بزكاة، ولا بحج، ولا بصيام، وإنما فُرضت عليه هذه الفرائض بعد أن تقرر التوحيد.

فالنبي ﷺ كان إذا بعث الدعاة يأمرهم أن يدعو الناس أول ما يدعون إلىٰ التوحيد كما في حديث معاذ: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أجابوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات ...**» إلخ الحديث(١).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والهجرةُ فريضةٌ علىٰ هذه الأمة من بلد الشِّرك إلىٰ بلد الإسلام، وهي باقيةٌ إلىٰ أن تقوم الساعةُ [٦٤].

فدل علىٰ أنه لا يؤمر بالصلاة، ولا الزكاة، ولا بالصيام إلا بعد تحقيق التوحيد، ووجود التوحيد، وأن من بدأ بغير التوحيد، فإن دعوته فاشلة، ومنهجه مخالف لمنهج الرسل كلهم -عليهم السلام-.

الرسل كلهم أول ما يبدءون به التوحيد وإصلاح العقيدة، وهذا منهج مهم معرفته للسالكين؛ لأنه كثر اليوم مَنْ يعكر علىٰ هذا المنهج فيغير هذا المنهج، ويختار منهجًا لنفسه من عنده، ومن عند غيره من الجهلة، لابد من الرجوع إلىٰ منهج الرسول ﷺ، وهذه فائدة معرفة الرسول ﷺ وسيرته، وجعل ذلك من الأصول الثلاثة، تعرف كيف دعا الناس، وما منهجه ﷺ في دعوتهم؟ حتىٰ تسير عليه؛ لأنه هو القدوة -عليه الصلاة والسلام-.

[٦٤] **الهجرة قرينة الجهاد في سبيل الله، وهي فريضة باقية غير منسوخة، يجب علىٰ كل مسلم يحتاج إلىٰ الهجرة أن يهاجر، ولا يجوز للمسلم أن يقيم في بلاد الكفر وهو لا يقدر علىٰ إظهار دينه، فيجب عليه أن يهاجر إلىٰ بلاد المسلمين فهي فريضة باقية لقوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تخرج الشمس من مغربها»[(١)].**

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٧٩)، وأحمد (٢٨/١١١) (١٦٩٠٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٧-١٠٠][٦٥].

---

[٦٥] هاتان الآيتان فيهما الوعيد علىٰ من ترك الهجرة وهو يقدر عليها، وأن مأواه جهنم وساءت مصيرًا، وإن كان لا يخرج من الإسلام، لكن هذه من نصوص الوعيد، وإن كان ترك الهجرة فقد ترك واجبًا، وكان عاصيًا ولكن لا يخرج من الإسلام بترك الهجرة؛ ولكن عليه وعيد شديد.

ثم بيَّن الله بالآية التي بعدها العذر الذي يسقط وجوب الهجرة، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾؛ يعني الأطفال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ ما عندهم إمكانيات، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ما يعرفون الطريق إلىٰ البلد -المدينة-؛ لأن الهجرة تحتاج إلىٰ سفر، وإلا فإن الإنسان يهلك خلال الهجرة إذا كان لا يعرف الطريق، فعذرهم في أمرين:

الأول: لا يستطيعون حيلة.

الثاني: ولا يهتدون سبيلًا، حتىٰ لو كان عندهم إمكانيات مادية؛ ولكنهم لا يعرفون الطريق الذي يسلكونه، من يدلهم، هذا هو العذر الصحيح.

أما الإنسان الذي عنده إمكانيات ويعرف الطريق فهذا لا عذر له.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّـٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦]. قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة ولم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان [٦٦].

---

[٦٦] هذه الآية من سورة العنكبوت، وفيها الأمر بالهجرة وأن أرض الله واسعة، إذا كنت في بلد لا تتمكن من إظهار دينك فيها، فهناك أرض الله واسعة، انتقل منها، لا تبقَ في هذه البقعة السيئة؛ بل اخرج منها إلىٰ أرض الله الواسعة، قد وسع الله الأرض سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والدليل علىٰ الهجرة من السنة قوله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة، حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها»**[1].

أما قوله ﷺ: **«لا هجرة بعد الفتح»**[2]. ظاهر هذا الحديث أن الهجرة انتهت بعد فتح مكة، وظن بعض الناس التعارض بين هذا الحديث، وبين قوله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها»**.

لكن أهل العلم أجابوا عن هذا الحديث، أن المراد: لا هجرة بعد الفتح، أي: من مكة؛ لأنها صارت بالفتح دار إسلام.

يظنون أن الهجرة باقية من مكة بعد الفتح، فيريدون تحصيل ثواب الهجرة، وأما الهجرة من بلاد الكفر فهي باقية إلىٰ أن تقوم الساعة، والدليل الآيات السابقة، والحديث النبوي السابق، هذا هو الجواب علىٰ هذا الإشكال.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) (٨٥) قبل الحديث (١٨٦٤) (٨٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، وأخرجه مسلم (١٨٦٤) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.

الاستقرار في المدينة ونزول باقي الشرائع وإكمال الدين

فلما استقرَّ بالمدينة أُمِرَ ببقيَّة شرائع الإسلام، مثل الزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأذان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام. أخذ علىٰ هذا عشر سنين، وبعدها توفِّي -صلوات الله وسلامُه عليه-، ودينُه باقٍ وهذا دينه، لا خيرَ إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شرَّ إلا حذَّرها منه، والخيرُ الذي دلَّها عليه: التوحيدُ، وجميعُ ما يُحبه الله ويرضاه، والشرُّ الذي حذَّرَ منه: الشركُ وجميع ما يكرهُهُ الله ويأباه، بعثه الله إلىٰ الناس كافَّة، وافترض الله طاعتَهَ علىٰ جميع الثقلين الجنِّ والإنس.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] [٦٧].

---

[٦٧] **هذا كما سبق بيانه أن الشريعة نزلت بالتدريج حتىٰ تكاملت -ولله الحمد- قبل وفاة النبي ﷺ، وأنزل الله عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وبعد نزول هذه الآية بمدة يسيرة توفي النبي ﷺ ودينه باقٍ إلىٰ أن تقوم الساعة.**

وأكمل الله به الدِّين.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] [٦٨].

---

[٦٨] فلم يُتوفﷺ إلا بعد أن أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، وأنزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ نزلت هذه الآية علىٰ رسول اللهﷺ وهو واقف في عرفة في حجة الوداع من يوم الجمعة، وعاش بعدهاﷺ مدة يسيرة، وانتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، وترك أمته علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وفي هذه الآية شهادة من الله ﷻ علىٰ كمال هذا الدين، وشموله لمصالح العباد، وحل قضاياهم ومشاكلهم إلىٰ أن تقوم الساعة، وهو صالح لكل زمان ومكان لا يحتاجون بعده إلىٰ شريعة أخرىٰ، أو إلىٰ كتاب ينزل، أو إلىٰ رسول يبعث بعد الرسولﷺ فما من قضية تجدُّ، وما نازلة تنزل إلىٰ يوم القيامة إلا وفي شريعة محمدﷺ حلها والحكم فيها؛ ولكن الشأن فيمن يحسن الاستنباط والاستدلال في الأحكام والقضايا، فإذا توفر أهل العلم، وأهل الاجتهاد الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد، فإن هذه الشريعة كاملة، وفيها حل المشاكل كلها، وإنما يحصل النقص من ناحيتنا نحن، من ناحية قصور العلم، وعدم إدراك ما أنزل الله ﷻ، أو من ناحية الهوىٰ، بأن يكون هنا هوىٰ يصرف عن الحق، وإلا فهذا الدين صالح، وشامل، وكامل، قد أغنىٰ الله به الأمة الإسلامية، إلىٰ أن تقوم الساعة إذا ما عملت به حق العمل، ورجعت إليه في أمورها.

....

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]. الرد إلىٰ الله هو الرد إلىٰ كتاب الله، والرد إلىٰ الرسول بعد وفاته هو الرد إلىٰ سنته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ:١٠].

فهذه الآية فيها رد علىٰ الذين يرمون الشريعة الإسلامية بالقصور، أو النقص، من الملاحدة والزنادقة، أو أنصاف المتعلمين الذين قصرت أفهامهم عن إدراك أسرار هذه الشريعة، فنسبوا القصور إلىٰ الشريعة، ولم يعلموا أن القصور من عندهم هم، ففيها رد علىٰ من اتهم الشريعة بالنقص، وأنها لم تتناول حاجات العباد، ومصالح العباد إلىٰ أن تقوم الساعة.

أو قال: إنها مخصوصة بالزمان الأول؛ لأن كثيرًا من الجهال إذا قيل لهم: هذا الحكم الشرعي، قالوا: هذا زمان الرسول والزمان الأول، أما الآن تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور، والأحكام الشرعية هذه لأناس مضوا ولمشاكل انتهت، يقولون هذا، وهذا كفر بالله ﷻ، وتكذيب لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣]. أكمل الله الدين لهذه الأمة إلىٰ أن تقوم الساعة لكل زمان، ولكل مكان ولكل جيل من الناس.

وفيها رد أيضًا علىٰ المبتدعة الذين يحدثون عبادة من عند أنفسهم وينسبونها إلىٰ الدين، وليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما ابتدعوها باستحسانهم، أو بتقليدهم لمن يحسنون به الظن من المخرفين وأصحاب المطامع والشهوات، فيحدثون في الدين عبادة ما أنزل الله بها من سلطان، وقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1].

---

(١) سلف تخريجه (ص١٨).

....

وقال -عليه الصلاة والسلام-: **«وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»**[(١)].

فالذي يحدث عبادات ليس لها دليل من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله، فإنه مُتَّهِم لهذا الدين بعدم التمام، وهو يريد أن يكمل الدين من عنده، ولا يعترف بتكميل الله له، فما لم يكن دينًا في عهد النبي ﷺ فإنه لا يكون من بعده دينًا أبدًا، فهذا رد علىٰ هذه الطوائف.

الطائفة التي تقول: إن الإسلام لا يصلح لكل زمان، أو الذين يبتدعون البدع المحدثات التي ليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله وينسبونها إلىٰ الدين ففي هذه الآية ردٌّ عليهم؛ لأن الدين أكمله الله ﷻ، فلا مجال للزيادة فيه، ولا النقصان، ولا مجال للتشكيك والتلبيس بأنه لا يصلح لأهل الزمان المتأخر: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ هذا كلام الله ﷻ، وهو أصدق القائلين وقال تعالىٰ: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ هذا آخر ما نزل علىٰ النبي ﷺ، وهو شهادة من رب العالمين لهذا الدين بالكمال والشمولية والصلاحية لكل زمان ومكان.

فقوله تعالىٰ خطاب لهذه الأمة من أولها إلىٰ آخرها وليس خطابًا للجيل الأول فقط إنما هو خطاب لكل الأمة إلىٰ أن تقوم الساعة.

أما الإجماع: فقد أجمعت الأمة علىٰ وفاته ﷺ، لم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يقولون: إن الرسول ما مات، وينفون الموت عن الرسول ﷺ،

---

(١) سلف تخريجه (ص١٤٣).

والدَّليلُ علىٰ موتِهِ ﷺ قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١][٦٩].

هذا كلام ساقط، كلام مردود واضح، يرده الحس والواقع، فإن الرسول ﷺ توفي بين أصحابه وغُسل وكُفن وصُلي عليه، ودفن -عليه الصلاة والسلام- هل هذه الأعمال تُعمل مع إنسان حي؟! عومل ﷺ معاملة الأموات غُسل، وكُفن، وصُلي عليه ثم دفن ﷺ في قبره.

هذه سنة الله ﷻ في خلقه، ثم أين الرسل الذين من قبله؟ سُنته سنة الرسل الذين من قبله، وقد ماتوا وهو واحد منهم يموت، هذا بإجماع أهل السنة والجماعة، ولم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يتعلقون علىٰ الرسول ﷺ ويستغيثون به من دون الله، ويقولون: هو حي.

[٦٩] النبي ﷺ لما أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة توفاه إليه كما هي سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]. والأنبياء والرسل داخلون في هذا العموم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فالنبي ﷺ قد توفي، وانتقل من هذه الدنيا إلىٰ ربه ﷻ .

وهذا ثابت بالنص والإجماع والقياس، أما النص ففي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ هذا إخبار من الله لرسوله ﷺ أنه سوف يموت، إنك مِّيتٌ، أي: تموت فيقال للذي يموت: هذا ميت، وأما الذي توفي بالفعل يقال له: ميْتٌ بالتخفيف لقوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]. الميت هو الذي فارقت روحه جسده، أما الميْتُ فهو الذي سيموت في المستقبل.

خاتمة
الإيمان بالبعث

والناسُ إذا ماتُوا يُبعَثونَ، والدَّليلُ قولُه: ﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه:٥٥][٧٠].

---

[٧٠] انتقل إلىٰ أصل آخر، وهو الإيمان بالبعث، أي: أنه ليس المراد موت فقط، نحن علمنا والكل يعلم حتىٰ الكفار والملاحدة والزنادقة، كلهم يعلمون أنه لابد من الموت، لا أحد ينكر الموت؛ لأنه شيء محسوس؛ لكن الشأن في البعث بعد الموت، هذا هو محل النزاع بين المؤمنين والكفار، البعث بعد الموت، وهو إعادة الأجسام التي تفتت وصارت رميمًا وترابًا وتفرقت في الأرض، تُعاد وتُبنىٰ كما كانت؛ لأن القادر علىٰ إنشائها أول مرة قادر علىٰ إعادتها، ثم تنفخ فيها الأرواح، ثم تتحرك، وتسير من القبور إلىٰ المحشر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ [القمر:٧-٨].

لا أحد يتخلف، فهذا البعث حق لا ريب فيه، ومن أنكره فهو كافر بالله ﷻ، والإيمان بالبعث هو أحد الأركان الستة للإيمان التي قال فيها النبي ﷺ: «أن تؤمن

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح:١٧-١٨] [٧١].

بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١).

فمن لم يؤمن بالبعث واليوم الآخر، فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ، ولو شهد بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ولو صلَّىٰ، وصام، وحج، وزكَّىٰ، وفعل الطاعات، فإذا أنكر البعث أو شك فيه فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ.

وأدلة البعث كثيرة منها قوله تعالىٰ: ﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾؛ يعني: الأرض حينما خلق آدم عليه السلام أبا البشرية: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ يعني: بعد الموت في القبور، ﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ هذا هوا لبعث.

فهذه الآية تضمنت البدء والإعادة: ﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

[٧١] ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ حينما خلق منها آدم عليه السلام: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ أي: بالموت والقبور ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ هذا هو البعث، يخرجون من القبور، ويسيرون إلىٰ المحشر، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥]. أي: تحيون علىٰ ظهرها، وفيها تموتون، ومنها تخرجون للبعث يوم القيامة.

هذه أدلة من القرآن علىٰ البعث، أيضًا يوجد دليل عقلي من القرآن نفسه وهو أن الذي قدر علىٰ البداءة قادر علىٰ الإعادة من باب أولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ

---

(١) سلف تخريجه (ص١٢٦).

....

ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم:٢٧]. الذين قدر على إيجاد الناس من عدم قادر على إعادتهم بعد الموت من باب أولى، هذا دليل سمعي عقلي.

ومن الأدلة على البعث: ما يحصل للأرض من الحياة بالنبات، أنت ترى الأرض ميتة ليس فيها نبات جرداء، ثم إن الله ﷻ ينزل عليها المطر، ثم ينبت النبات الذي كان هشيمًا ميتًا، كذلك الأجسام في الأرض كانت مخزنة في الأرض فينزل الله عليها مطرًا، ثم تنبت الأجسام، وتتكامل ثم تنفخ فيها الأرواح، فأنتم ترون الأرض كيف تكون قاحلة ثم تحيا بما نبت فيها.

الله -جل وعلا- هو الذي يحيي الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت:٣٩]. فالذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها؛ لأن الكل أحياء بعد الموت.

ومن الأدلة على البعث: أنه لو لم يكن هناك بعث للزم أن يكون خلق الناس عبثًا حيث إنهم يعيشون منهم المطيع المتقي المؤمن بالله ورسله، ومنهم الكافر الملحد والزنديق والجبار والمتكبر والعاصي، كلهم يعيشون ثم يموتون، دون أن ينال هذا المؤمن شيئًا من جزائه أو ينال هذا الكافر وهذا الزنديق، وهذا الملحد، وهذا الطاغية المتجبر على الناس دون أن ينال جزاءه.

فهل يليق بالله أن يترك الناس هكذا دون أن يجازي أهل الإيمان بإيمانهم، وأهل الإحسان بإحسانهم، وأهل الإجرام والكفر بإجرامهم وكفرهم؟! هذا لا يليق

بحكمة الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[النجم:٣١]. هذا لا يكون إلا في يوم القيامة، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية:٢١].

وقال ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨].

وقال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ١١٥].

وقال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[القيامة:٣٦-٤٠].

ورد علىٰ الكافر الذي قال: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾[يس:٧٨-٨٠]. الذي قدر علىٰ إخراج النار المحرقة من الشجر الأخضر الرطب الذي قدر علىٰ هذا ألا يقدر علىٰ إحياء الأموات؟!

ومن أدلة البعث: الاستدلال بخلق السموات والأرض فالذي خلق هذه المخلوقات الهائلة العظيمة الكبيرة قادر علىٰ أن يعيد الإنسان؛ لأن القادر علىٰ الشيء العظيم يقدر علىٰ ما دونه من باب أولىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[يس:٨١].

الحساب والميزان

وبعد البعث محاسبون ومجزون بأعمالهم، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم:٣١] [٧٢].

وقال تعالىٰ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر:٥٧].

فهذه أدلة البعث التي تثبت أن الله سبحانه وتعالى يبعث من في القبور، وأنه يجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فليكفر الكافر، وليفسق الفاسق، والزنديق والملحد، فإن أمامه البعث والنشور والجزاء والحساب.

أما المؤمن المتقي الذي يعبد الله، ويتقرب إلىٰ الله، فإن عمله لن يضيع، فإن هناك موعدًا يوفيه الله فيه عمله، ويضاعف له أجره، ويعطيه ما لم يقع في ظنه وحسبانه.

[٧٢] من أعمال يوم القيامة: الحساب والميزان، الحساب بمعنىٰ مناقشة أهل المعاصي.

فالمسلمون علىٰ أقسام يوم القيامة:

القسم الأول منهم: من لا يحاسب، ويدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب،

كما في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب[١].

القسم الثاني من الناس: من يحاسب حسابًا يسيرًا، وهو العرض فقط، لا يحاسب حساب مناقشة؛ وإنما يحاسب حساب عرض فقط، وهذا أيضًا من السعداء، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٧-٩].

القسم الثالث: من يحاسب حساب مناقشة، وهذا تحت الخطر لقوله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»[٢]. أما الكفار فقد اختلف العلماء فيهم هل يحاسبون أو لا يحاسبون؟ فمن العلماء من يقول: إن الكفار لا يحاسبون؛ لأنهم ليس لهم حسنات؛ وإنما يذهب بهم إلىٰ النار؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ومن العلماء من يقول: إنهم يحاسبون حساب تقرير، أي: بأعمالهم، وكفرهم وإلحادهم، ثم يذهب بهم إلىٰ النار.

والميزان: معناه الآلة التي توزن بها أعمال العباد توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣]. فإذا ثقلت السيئات خسر الإنسان، وإذا ثقلت الحسنات ربح الإنسان.

هذا الميزان ميزان الأعمال، كذلك من أوتي كتابه بيمينه فحسابه يسير، ومن أوتي كتابه بشماله فحسابه عسير، وسيرىٰ الأهوال والأخطار جسيمة، ومن خطر إلىٰ خطر في مواقف القيامة، والحساب والحشر، هذه أمور هائلة لو فكرنا فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومن كذَّب بالبعث كَفَرَ، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن:٧] [٧٣].

---

[٧٣] قوله: «من كذب بالبعث كفر»؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان؛ ولأنه مكذب لله ولرسله ولكتبه؛ لأن الله -جل وعلا- أخبر عن البعث، والرسل أخبرت عن البعث، والكتب أخبرت عن البعث، فمن أنكره فهو كافر، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الزعم هو الكذب ﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾.

فدلت الآية علىٰ أن إنكار البعث كفر، يقولون: ليس بعد الموت بعث، المشركون وعبدة الأصنام في عهد النبي ﷺ كانوا يجادلون بالبعث ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ [النازعات:١١-١٢]. وقالوا: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨].

ومن مجادلتهم: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ۝٣٥ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:٣٥-٣٦]. إلىٰ غير ذلك من مقالات الكفار من الأمم السابقة ومن المشركين في عهد النبي ﷺ فمن كذب بالبعث فهو مع هؤلاء الكفرة.

لا ينكر البعث إلا كافر، ولقد أمر الله -جل وعلا- نبيه ﷺ أن يقسم به علىٰ البعث، قال: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ هذا قسم ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التغابن:٧]. هذه الآية إحدىٰ الآيات الثلاث التي أمر الله نبيه فيها أن يقسم علىٰ البعث.

الآية الأولىٰ: في سورة يونس: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣].

الإيمان بالرسل

وأرسَلَ الله جميعَ الرسل مبشِّرين ومنذرين، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٦٥][٧٤].

الثانية في سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سبأ:٣-٤]. فالله أمر نبيه أن يقسم به علىٰ البعث وعلىٰ قيام الساعة.

الآية الثالثة: هي التي معنا في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن:٧]. فالحكمة من البعث هي جزاء العباد علىٰ أعمالهم، وقوله تعالىٰ: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أي: لتخبرون بأعمالكم وتجازون بها.

[٧٤] الإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان الستة قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله**»[1].

---

(١) سلف تخريجه (ص١٢٦).

وأولهم: نوحٌ عليه السلام، و آخرهم: محمد ﷺ، والدليل على أن أولهم نوحٌ عليه السلام قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣][٧٥].

فالإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان، فلابد من الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم، فمن جحد رسولًا واحدًا منهم، فهو كافر بالجميع كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فلابد من الإيمان بجميع الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، من سمىٰ الله منهم في كتابه ومن لم يسم، فإن الرسل كثيرون، ولهذا جاء في الحديث: أن عددهم: **«مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا»**[١].

فهم رسل كثيرون منهم من سمىٰ الله في كتابه، ومنهم من لم يسم، فيجب علينا الإيمان بجميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم.

[٧٥] الدليل علىٰ أن أولهم نوح ، قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ ذكر الله جملة من أسمائهم في هذه الآية.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٦/ ٦١٧-٦١٩) (٢٢٢٨٧) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

كما ذكر جملة من أسمائهم في آية الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إلىٰ آخر الآيات [الأنعام:٨٤-٨٦].

فأولهم نوح -عليه الصلاة والسلام- بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعثه الله إلىٰ قومه لما غلوا في الصالحين بعد أن كان الناس علىٰ دين التوحيد منذ آدم عليه السلام إلىٰ عشرة قرون، وهم علىٰ التوحيد.

فلما جاء قوم نوح كان فيهم رجال صالحون، فلما مات هؤلاء الصالحون حزنوا حزنًا شديدًا، فانتهز الشيطان هذه الفرصة، وقال لهم: صوروا صور هؤلاء الصالحين، وانصبوها علىٰ مجالسكم من أجل إذا رأيتم هذه الصور تتذكرون أحوالهم وتنشطون علىٰ العبادة، فقاموا وصوروا صور هؤلاء الموتىٰ، ونصبوها علىٰ المجالس فلم تُعبد في أول الأمر، لوجود العلماء الذين يبينون للناس التوحيد، وينكرون الشرك.

فلما مات العلماء، وذهب الجيل الأول، جاء جيل متأخر، وقد مات العلماء، جاء الشيطان إليهم فقال لهم: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، فزين لهم عبادتها فعبدوها من دون الله.

ومن ثم حدث الشرك في الأرض، فبعث الله نبيه نوحًا -عليه الصلاة والسلام- يدعوهم إلىٰ الله عز وجل ويردهم إلىٰ التوحيد الذي هو دين أبيهم آدم عليه السلام؛ لكنهم عاندوا واستكبروا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

قال ابن عباس: هذه أسماء رجال صالحين، صوروا صورهم ونصبوها علىٰ مجالسهم فآل بهم الأمر إلىٰ أن عبدوها من دون الله.

فلما جاءهم نوح -عليه الصلاة والسلام-، ونهاهم عن عبادتها وأمرهم بعبادة الله، قالوا: لا تذرون آلهتكم، لا تطيعوا نوحًا، واستمروا علىٰ كفرهم وطغيانهم وعنادهم.

هذا أول شرك حدث في الأرض، وسببه الصور؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **«إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون»**(١).

وقال ﷺ: **«إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**(٢). يؤمرون بنفخ الروح في هذه الصور من باب التعجيز والتعذيب لهم والعياذ بالله؛ لأن التصوير وسيلة من وسائل الشرك كما حصل لقوم نوح.

فأول الرسل نوح، وأما خاتم الرسل وآخرهم فهو محمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقال ﷺ: **«وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»**(٣).

فبه ﷺ ختمت الرسالات السماوية فلا يبعث بعده نبي إلىٰ أن تقوم الساعة، ولكن شريعته باقية إلىٰ أن تقوم الساعة، ودينه باق إلىٰ أن تقوم الساعة كما سبق، فمن ادعىٰ النبوة بعد محمد ﷺ فهو كافر، ومن صدقه فهو كافر بالله؛ لأنه لا نبي بعده ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وكل أمة بعث الله إليهم رسولًا من نوح إلىٰ محمد يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦][٧٦].

وقد ادَّعىٰ النبوة بعده خلق كثير، وفضحهم الله، وأظهر كذبهم، ومن آخرهم -فيما نعلم- القادياني، غلام أحمد القادياني، الهندي، الذي كان في الأول يدعي العلم والعبادة، ثم ادعىٰ أنه عيسىٰ بن مريم ثم ادعىٰ النبوة، والآن له أتباع يسمون بالقاديانية.

وقد كفرهم المسلمون ونابذوهم واعتبروهم فرقة كافرة خارجة عن الإسلام، وهم منابذون ومطاردون ولله الحمد من بلاد المسلمين، ولهم نشاط؛ لكن نشاطهم يبوء بالفشل.

الحاصل: أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ، من ادعىٰ النبوة فهو كذاب، كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يبعث دجالون كذابون، قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله**»(١).

[٧٦] المتنبئون كثيرون؛ ولكن الله يفضح أمرهم، ويكشف سترهم، ويبين خزيهم للناس، ومَنْ صدَّقَهُم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله ﷺ ولإجماع المسلمين علىٰ ختم النبوة بمحمد ﷺ.

قوله: «**وكل أمة بعث الله إليهم رسولًا**». أي: كل أمة من الناس يبعث الله إليها رسولًا؛ ليقيم الحجة عليهم، لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولقوله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم بإثر (٢٩٢٣) في كتاب الفتن (١٥٧) (٨٤).

تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥] . فكل أمة من الأمم السابقة يبعث الله إليها رسولًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤] .

لكن يجب أن نعرف ما هي دعوة الرسل؟ دعوة الرسل كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم هي دعوة إلىٰ التوحيد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ فكل ما عُبد من دون الله طاغوت، كما يأتي في أنواع الطواغيت أن من أنواعهم ما عبد من دون الله وهو راض بذلك كما سيأتي.

فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أي: اجتنبوا عبادة الأوثان والأصنام والقبور والأضرحة هذه هي الطواغيت، فدلت الآية الكريمة علىٰ أن دعوة الرسل كلها تتركز علىٰ التوحيد من أولهم إلىٰ آخرهم.

كما قال ﷻ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٢٥] .

وقوله: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[النحل:٢] .

فدعوة الرسل كلهم إلىٰ التوحيد، وإفراد الله -جل وعلا- بالعبادة، والنهي عن الشرك هذه هي دعوة الرسل، ثم بعد التوحيد تأتي الشرائع من الحلال والحرام، وتفاصيل الشرائع تختلف باختلاف الأمم وحاجة الأمم، وينسخ الله منها ما يشاء، ثم نسخت كلها بشريعة الإسلام، الحلال والحرام والأحكام والعبادات والأوامر والنواهي، أما الأصل وهو التوحيد فهذا لا اختلاف فيه ولا نسخ، هذا دين واحد، دين الرسل كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم دين واحد، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨] .

الكفر بالطاغوت والإيمان بالله

وافترَض الله علىٰ جميع العباد الكفرَ بالطاغوت والإيمان بالله [٧٧].

ودين التوحيد هو عبادة الله بما شرع في كل وقت بحسبه، فإذا نسخ هذا الشرع انتقل إلىٰ الناسخ، فمن أصر وبقي علىٰ المنسوخ، وترك الناسخ، فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ؛ لأن الدين المنسوخ لا يكون دينًا بعد نسخه؛ وإنما هو دين قبل أن ينسخ، فإذا نسخ فلا يكون دينًا، ويكون الدين هو الناسخ، فلهذا نسخت شريعة الإسلام ما قبلها من الشرائع، فمن بقي علىٰ اليهودية، أو النصرانية، بعد بعثة محمد ﷺ فهو كافر؛ لأنه يعمل بدين منسوخ انتهىٰ وقته.

[٧٧] قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وافترض الله علىٰ جميع العباد الكفار بالطاغوت، والإيمان بالله»**.

ثم ذكر تعريف الطاغوت، فالطاغوت ذكَره الله -جل وعلا- في آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٦-٢٥٧].

قال ابن القيِّم: معنىٰ الطاغوت: ما تجاوز به العبد حدَّهُ من معبود، أو متبوع، أو مطاع [٧٨].

وفي سورة النساء، قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١]. وهذه الآية في اليهود.

ويقول سبحانه في المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠].

وفي سورة النحل، يقول -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. **الطاغوت**: مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، يقال: طغىٰ الماء إذا ارتفع منسوبه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١].

[٧٨] أما معنىٰ الطاغوت في الشرع، فهو كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونقله عنه الشيخ هاهنا.

الطاغوت: ما تجاوز به العبد حدَّه، العبد له حد؛ لأنه عبد حدَّد الله له حدودًا يجب عليه أن يقف عندها، فإذا تجاوزها فإنه يكون طاغوتًا، فمن تجاوز حدود الله التي حددها لعباده وأمرهم ألاَّ يتجاوزوها وألا يقربوها، فهو طاغوت، فإذا عصىٰ الله، وتجاوز حدوده وطغىٰ فإنه يسمىٰ طاغوتًا؛ لأنه طغىٰ وتعدىٰ حدود الله.

فقوله: «ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع».

....

هذا التعريف الشامل للطاغوت؛ لأن الله -جل وعلا- أمر بعبادته وحدَه لا شريك له، وأمر باتباع رسوله ﷺ، وأمر بطاعته وطاعة رسوله فيما حلل وحرم، فمن تجاوز هذا الأمر فهو طاغوتٌ، من تجاوز حد العبادة التي أوجبها الله، واختص بها، ونفاها عن غيره، فعبد مع الله غيره فهو طاغوت، المشرك طاغوت؛ لأنه تجاوز الحد في العبادة وعبد مع الله غيره، صرف العبادة لغير مستحقها.

وكذلك من عُبِدَ وهو راض، الذي يعبده الناس بهذا، ويفرح ويترأس بهذا الشيء ويتزعم، هذا طاغوت مثل: فرعون، والنمرود، ومشايخ الطرق الصوفية الغلاة الذين يعبدهم أتباعهم ويرضون بذلك، أو يدعون الناس إلىٰ هذا، أي: إلىٰ أن يعبدوهم كما سيأتي، فهذا طاغوت في العبادة.

قوله: «أو متبوع»: الله -جل وعلا- أمر جميع الخلق أن يتبعوا محمدًا ﷺ، فلا يجوز لأحد أن يتبع غيره -عليه الصلاة والسلام-، فمن اتبع غير الرسول ﷺ وزعم أن هذا جائز فإنه يكون طاغوتًا؛ لأنه اتبع غير الرسول ﷺ الذي أُمر باتباعه.

فالاتباع خاص بالرسول ﷺ، أما غيره من العلماء والدعاة فهؤلاء يُتبعون إذا اتبعوا طريقة الرسول ﷺ.

فالمتبع هو الرسول ﷺ، أما هؤلاء فإنهم مبلغون فقط يتبعون للحق وما وافقوا فيه اتباع الرسول ﷺ، وما خالفوا فيه الرسول فلا يجوز اتباعه.

مثال ذلك مشايخ الطرق الصوفية، يتبعهم مريدوهم وعبيدهم في غير طاعة الرسول ﷺ بل يقولون: إننا لسنا بحاجة إلىٰ الرسول ﷺ نحن نأخذ مما أخذ منه الرسول ﷺ، ونتلقىٰ عن الله مباشرة، الرسول ﷺ يتلقىٰ عن الله بالواسطة، بواسطة

....

جبريل، ونحن نتلقىٰ عن الله مباشرة ويقولون: أنتم تروون دينكم عن ميت، ونحن نروي ديننا عن الله ﷻ؛ لأنهم يزعمون أن شيوخهم يتصلون بالله، ويتلقون من الله مباشرة.

بلغ بهم الحد إلىٰ هذا الطغيان، والعياذ بالله، هذه طريقتهم لا شك أن هؤلاء هم رءوس الطواغيت والعياذ بالله؛ لأنه لا طريق إلىٰ الله -جل وعلا- إلا باتباع رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢].

فالذي يتبع غير الرسول هذا يعتبر طاغوتًا، وكذلك من يدعو إلىٰ اتباعه ويقول للناس: أنا آتيكم بالأمر من الله مباشرة، هذا أكبر الطواغيت في العالم، والعياذ بالله.

قوله: «أو مطاع»: الطاعة إنما هي لله، ولرسوله، بما حلل وحرم، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، وليس لأحد أن يشارك الله في التحليل والتحريم؛ ولذلك حكم الله علىٰ من حلل وحرم أو أطاع من فعل ذلك بأنه مشرك.

قال ﷻ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ

....

كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١١٨-١٢١] .

لأن أهل الجاهلية يقولون: الميتة حلال؛ لأن الله هو الذي ذبحها، فهي أولىٰ بالحل مما ذبحتم وذكيتم، فالله -جل وعلا- يقول: لا تأكلوا إلا ما ذكي ذكاة شرعية، وحرم عليكم الميتة.

وهؤلاء يقولون: لا؛ الميتة حلال، هي أولىٰ بالحل من المذكاة؛ لأن المذكاة ذكيتموها أنتم، وأما الميتة فالله هو الذي ذبحها.

ولهذا رد علىٰ المشركين، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله -سبحانه عز وجل-.

وقال بعدها: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ يقولون: الميتة ذبحها الله، والمذكاة أنتم ذبحتموها فكيف تستحلون ما ذبحتم، ولا تستحلون ما ذبحه الله؟! هذه مجادلة بالباطل.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هذا من شرك الطاعة، التحليل والتحريم حق لله -جل وعلا-.

فلا يجوز لأحد أن يحلل أو يحرم من عند نفسه، أو يطيع من حلل أو حرم من عند نفسه، ومَن فعل ذلك فإنه طاغوت ومطيع للطواغيت الذين يحللون ويحرمون من دون الله هذا معنىٰ قوله: أو مطاع، أي: مطاع في التحليل والتحريم؛ لأن التحليل والتحريم حق لله -جل وعلا-، والرسول ﷺ مبلغ عن الله ما حلل وحرم.

أنواع الطواغيت

والطَّواغيت كثيرون، ورءوسهم خمسةٌ: إبليسُ لعنه الله، ومن عُبِدَ وهو راضٍ [٧٩].

---

[٧٩] **قوله: «والطواغيت كثيرون ورءوسهم خمسة»:**

الطواغيت الذين ينطبق عليهم هذا التعريف: كل معبود، أو متبوع، أو مطاع كثيرون؛ ولكن رءوسهم خمسة يعني أكابرهم خمسة.

الأول: إبليس لعنه الله، أي: طرده الله وأبعده عن رحمته بسبب أنه امتنع عن السجود لآدم، وعصىٰ الله تعالى وتكبر، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص:٧٦]. فعصىٰ أمر الله، وتكبر فلعنه الله، وطرده وأبعده، وسمي إبليس قيل: لأنه أبلس من الرحمة يعني يئس من الرحمة، فالمُبْلِس هو اليائس من الشيء، فإبليس لعنه الله رأس الطواغيت؛ لأنه هو الذي يأمر بعبادة غير الله، وهو الذي يأمر باتباع غير رسول الله ﷺ، وهو الذي يأمر بطاعة غير الله بالتحليل والتحريم، فإبليس هو مصدر الشر، وهو رأس الطواغيت.

الثاني: من عُبِد وهو راض، أي: عُبد وهو راض بعبادة الناس له فهو طاغوت. أما من عُبِدَ وهو غيرُ راض بذلك فلا يدخل في هذا؛ لأن عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام- عُبِد من دون الله؛ ولكنه غير راض بذلك، وأمه وعزير والأولياء

والصالحون من عباد الله لا يرضون بهذا؛ بل كانوا ينكرون هذا، ويحاربون من فعله، فمن عُبِد وهو غير راض بذلك، فإنه لا يسمىٰ طاغوتًا.

ولذلك لما أنزل الله قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. فرح المشركون، وقالوا: نحن نعبد المسيح ونعبد ونعبد، إذن هم معنا في النار، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢].

وفي الآية الأخرىٰ، قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون عيسىٰ عليه السلام ثم قال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٨-٥٩].

فهو عبد لله، ولا يرضىٰ أن يُعبَد من دون الله؛ بل بعثه الله بإنكار ذلك: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]. فالذي عُبِد وهو غير راض بذلك، لا يدخل في هذا الوعيد ولا يكون طاغوتًا؛ لأنه منكر لذلك؛ لأن الطاغوت هو الذي يرضىٰ بأن يُعبَد من دون الله عز وجل.

ومَنْ دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه [٨٠].

---

[٨٠] والثالث: «من دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه»: مثل رءوس المشركين الذين يدعون الناس إلىٰ عبادة أنفسهم، مثل فرعون قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

ومثل النمرود، ومثل غلاة الصوفية الذين يدعون الناس إلىٰ عبادتهم حتىٰ إنهم يوصون الناس أن يعبدوهم بعدما يموتون فيقول أحدهم: إذا أعيتكم الأمور فأتوا إلىٰ قبري، أي: إذا أعجزتكم الأمور فأتوا إلىٰ قبري، ولا يحول بينكم وبين حفنة من التراب.

يوصون الناس أن يأتوا إلىٰ قبورهم، ويعدونهم أنهم سيقومون بحوائجهم، فمن دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه حيًّا وميتًا فهو من رءوس الطواغيت، وكذلك من دعا الناس إلىٰ عبادة غيره من الطواغيت، وهم دعاة الشرك، هؤلاء طواغيت، الذين يزينون الشرك للناس، ويسمونه بغير اسمه، ويقولون هذا من باب التوسل، أو هذا من باب الشفاعة وهم كثير.

إن هؤلاء طواغيت؛ لأنهم يدعون إلىٰ الشرك، فهم يدعون إلىٰ عبادة غير الله، ويسمون ذلك بغير اسمه، ويزينونه للناس بالشبهات وزخرف القول، هؤلاء هم الطواغيت، دعاة الشرك طواغيت، وكل من عُبِد من دون الله ورضي بذلك، أو دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه، أو دعا الناس إلىٰ عبادة غير الله، فإنه من الطواغيت؛ بل هو من رءوس الطواغيت، نسأل الله العافية.

ومن ادَّعىٰ شيئًا من الغيب [٨١].

---

[٨١] الرابع: «**من ادعىٰ شيئًا من علم الغيب**»: وهذا يدخل فيه: السحرة، والمنجمون، والكهان، والرمالون، وكل من يدعي أنه يعلم الغيب، ويقول للناس: سيحصل لكم كذا وكذا، أنت سيحصل لك سعادة، أو يحصل لك شيء من التعب، أو توفق في زواج، أو لا توفق، هؤلاء يدعون علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

وقال تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾: هذا حصر فلا يعلم الغيب إلا الله، أو من أطلعه الله علىٰ شيء من الغيب من رسله لأجل مصلحة البشر ومعجزة للرسول، لكن لم يعلم الغيب من ذات نفسه وإنما علمه للغيب من تعليم الله له، فلا يعلم الغيب إلا الله، فمن ادعىٰ علم الغيب فإنه يكون مشاركًا لله فيما اختص به سبحانه، فيكون مشركًا وطاغوتًا وكافرًا، وهذا من أعظم أنواع الردة عن الإسلام.

ومن حكم بغير ما أنزل الله [٨٢].

---

[٨٢] **الخامس: «من حكم بغير ما أنزل الله»**: ودليله قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٦٠]. فالذي يحكم بغير ما أنزل الله مستحلًا لذلك يكون طاغوتًا، والذي يقول: إنه يجوز أن يتحاكم إلىٰ القانون، أو إلىٰ العوائد في الجاهلية، أو عوائد القبائل والبادية، ويتركوا الشرع، يقول: هذا حلال أو هذا يساوي ما أنزل الله، فإذا قال: إنه أحسن مما أنزل الله، أو يساوي ما أنزل الله، أو قال: إنه حلال فقط، ولم يقل: إنه يساوي ولا أفضل، قال: حلال جائز، هذا يعتبر طاغوتًا، وهذا بنص القرآن، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ سمي طاغوتًا؛ لأنه تجاوز حده.

أما من حكم بغير ما أنزل الله، وهو يقر أن ما أنزل الله هو الواجب الاتباع والحق، وأن غيره باطل، وأنه يحكم بباطل، فهذا يعتبر كافرًا الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة؛ لكنه علىٰ خطر عظيم، علىٰ طريق قد يصل به إلىٰ الكفر المخرج من الملة إذا تساهل في هذا الأمر.

وأما من حكم بغير ما أنزل الله عن غير تعمد؛ بل عن اجتهاد، وهو من أهل الاجتهاد من الفقهاء، واجتهد؛ ولكن لم يصب حكم الله، وأخطأ في اجتهاده فهذا مغفور له.

قال ﷺ: **«إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ فله أجر»**[1]؛ لأنه لم يتعمد الخطأ هو يريد الحق، ويريد موافقة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦] [٨٣].

حكم الله ﷻ ؛ لكنه لم يوفق له فهذا يعتبر معذورًا ومأجورًا؛ ولكن لا يجوز اتباعه علىٰ الخطأ، لا يجوز لنا أن نتبعه علىٰ الخطأ.

ومن هذا اجتهادات الفقهاء التي أخطئوا فيها، أو اجتهادات القضاة في المحاكم إذا اجتهدوا وبذلوا وسعهم في طلب الوصول إلىٰ الحق؛ ولكن لم يوفقوا فخطؤهم مغفور.

[٨٣] قال ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ معناه أن أحدًا لا يُكرَه علىٰ الدخول في الإسلام؛ لأن الدخول في الإسلام لابد أن يكون عن اقتناع، واعتقاد بالقلب، ولا يكره عليه أحد، لا يمكن هذا؛ لأن القلوب لا يتصرف فيها إلا الله ﷻ، لا يكرَه أحد علىٰ الإسلام؛ لأننا لا نملك القلوب؛ وإنما الله -جل وعلا- هو الذي يملكها، ويتصرف فيها، ولكن نحن ندعو للإسلام ونرغب فيه.

نجاهد في سبيل الله من كفر لأجل نشر الإسلام، وإتاحة الفرصة لمن يريد أن يسلم، ولأجل قمع أعداء الله، أما الهداية فهي بيد الله ﷻ لا أحد يكرَه علىٰ الإيمان والإسلام، وإنما هذا شيء راجع إليه هو.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ فالإسلام، ولله الحمد ليس فيه ما يكره؛ بل كله محبوب ومرغوب، والكفر والشرك كله شر وكله مكروه، قد تبين

هذا من هذا، تميز الرشد، وهو الحق من الغي، وهو الباطل، والإنسان عنده عقل وعنده تفكير يوازن بين الحق والباطل، سيهديه تفكيره إن كان سليمًا وسالمًا من الهوىٰ والدوافع، سيهديه تفكيره السليم إلىٰ قبول الحق بدون أن يكره، هذا قول في الآية.

والقول الثاني: أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، وأن أهل الكتاب لا يجبرون علىٰ الدخول في الإسلام، بل إذا أرادوا البقاء علىٰ دينهم مُكِّنوا من ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية للمسلمين وهم صاغرون، أما غيرهم من الكفرة فلا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل؛ لأنهم ليس لهم دين والوثنية دين باطل.

والقول الثالث: أن هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، هذه في أول الأمر قبل أن يشرع الجهاد ثم شرع الجهاد فنسخت هذه الآية.

ولكن القول الأول هو الصحيح أن الآية غير منسوخة وأن الدين لا يدخل في القلوب بالإكراه، وإنما يدخل بالاختيار، لكن من لم يقبل الدين يعامل المعاملة اللائقة به من قتل، أو أخذ جزية مما شرع الله تعالى في حقه.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ الطاغوت: المراد جميع الطواغيت في العبادة، أو الاتباع أو في الطاعة؛ لأن كلمة الطاغوت هنا عامة.

قدم الكفر بالطاغوت علىٰ الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله لا ينفع إلا بعد الكفر بالطاغوت، فمن آمن بالله، ولم يكفر بالطاغوت، فإنه لا ينفعه إيمانه.

فالذي يقول: أنه مؤمن، ويصلي ويصوم، ويزكي، ويحج، ويفعل الطاعات؛ لكنه لا يتبرأ من الشرك ولا المشركين ويقول: لا دخل لي فيهم، هذا لا يعتبر مسلمًا

وهذا هو معنىٰ لا إله إلا الله، وفي الحديث: «**رأس الأمرِ الإسلام، وعمودُهُ الصلاةُ، وذروَةُ سنامه الجهادُ في سبيل الله**»(١) [٨٤].

لأنه لم يكفر بالطاغوت؛ فلابد من الكفر بالطاغوت، وهو رفض الطاغوت واعتقاد بطلانه، والابتعاد عنه وعن أهله، لابد من هذا، فلا يصح إيمان إلا بعد الكفر بالطاغوت.

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. فلا تصح عبادة الله إلا باجتناب الطاغوت، لا يجتمع ضدان، لا يجتمع الإيمان والكفر في القلب. الإيمان والكفر الأكبر لا يجتمعان في قلب، أما الكفر الأصغر فقد يجتمع.

[٨٤] قال الشيخ: «**وهذا معنىٰ لا إله إلا الله**»، يعني: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله، هذا هو رأس أمر الدين، الشهادتان هما رأس الإسلام وهما أصل الإسلام، فلا يدخل الإنسان في الإسلام إلا إذا أتىٰ بالشهادتين نطقًا وعلمًا وعملًا واعتقادًا، لا يكون الإنسان مسلمًا إلا بذلك، شبه الدين بالجسم الذي له رأس وعمود وسنام، فإذا قطع الرأس أو لم يكن هناك رأس فإنه لا بقاء للحياة، كذلك بدون التوحيد لا بقاء للدين، لأنه هو الرأس الذي إذا قطع أو زال زالت الحياة وفسد البدن.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠/ ٢١٤-٢١٥) (١١٣٣٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

....

وعموده الذي يقوم عليه هو الصلاة، فبدون عمود لا يقوم الإسلام، مثل بيت الشعر، أو الخيمة إذا لم يكن هناك عمود تقوم عليها فإنها لا تقوم، فلا يقوم بيت إلا بعمود فإذا فُقد العمود لا يقوم البيت، كذلك الصلاة إذا فُقدت فإن الإسلام لا يقوم.

ولذلك قال العلماء: إن من ترك الصلاة تكاسلًا فإنه يكفر علىٰ الصحيح، ولو كان يعترف بوجوبها؛ لأنه لا فائدة من الاعتراف بالوجوب مع عدم التطبيق وعدم العمل، لا فائدة من ذلك، ولذلك حكم المحققون من أهل العلم بكفر من ترك الصلاة متعمدًا ولو كان يقر بوجوبها، أما من كان يجحد وجوبها، فهذا كافر بإجماع المسلمين.

«وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»: ذروة سنام الأمر، وهو الدين، الجهاد في سبيل الله فالجهاد دليل علىٰ قوة الإسلام، إذا وجد الجهاد في سبيل الله فهذا دليل علىٰ قوة الإسلام؛ لأن الجهاد لا يكون إلا من قوة إيمان وقوة مادة.

فالنبيﷺ جعل ثلاثة أشياء للدين: الرأس والعمود والسنام، فبعدم الرأس لا وجود للدين أصلًا، فالذي لا يحقق الرأس -وهو التوحيد- لا دين له.

والذي لا يصلي لا يقوم له دين، وإن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ لأنه يحتاج إلىٰ عمود يقيم عليه الدين، وهو لا يوجد إلا بالصلاة.

وإذا فُقد الجهاد فُقدت القوة في الإسلام، وصار إسلامًا ضعيفًا، وصار المسلمون مستضعفين، فلا قوة للإسلام والمسلمين إلا بالجهاد في سبيل الله ﷻ، فهو علامة القوة، وفقده علامة الضعف.

....

هذا وجه تشبيه الرسول ﷺ لهذه الأمور الثلاثة بالنسبة للدين: رأس وعمود وسنام، كما أن البعير إذا صار له سنام هذا يدل علىٰ أنه قوي وإذا لم يكن له سنام فهذا يدل علىٰ أنه هزيل ضعيف.

كذلك المسلمون اليوم مستضعفون في الأرض، ولهذا في الحديث: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه منكم حتىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم**»[1]. فترك الجهاد ذل وضعف للمسلمين، ووجوده دليل القوة والسِّمَن، كالسنام للحيوان.

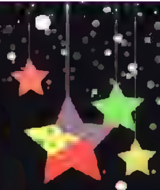
والله أعلم، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد.

وبهذا انتهىٰ شرح هذا الكتاب المبارك ثلاثة الأصول

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.





تحميل كتب و رسائل علمية

قناة عامة

معلومات

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطلة



الفهرس



تحميل كتب و رسائل علمية

قناة عامة



معلومات

t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah

رابط الدعوة

الإشعارات

معطلة



فهرس الموضوعات

